# آزاد

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-06-158-8
الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2020.

أيمن خليلي

# آزاد

رواية

# الفصل الأول

في أوائل القرن السابع عشر، وفي لبّ الاضطرابات السياسية التي سادت أوروبا وقتها، كان للفقراء وأصحاب الطبقة الدنيئة كما يسمونهم في ذلك الزمان مكانة مهمشة في المجتمعات، فلا يتمتعون بالمكانة والامتيازات التي يختص بها أصحاب الطبقة المتوسطة وأصحاب الطبقة البرجوازية، فتجدهم يعملون في المزارع والمصانع والمناجم الاستبدادية ليضمنوا لقمة العيش، ويؤمّنوا لأبنائهم قوت اليوم، فكانوا عرضة للأمراض المزمنة والمعاملة السيئة التي يفرضها عليهم أربابهم في العمل، واعتبروا تلك الحياة المظلمة مجرد اختبار من الله، يمتحنهم به ويقيس إيمانهم، ليجزيهم بحياة أخرى خير منها وأيسر، فيكدّون ويتعبون ويكابدون من الشقاء والمذلة ما يكابدون طمعا منهم في نيل جزائهم عن كل هذا الصبر في حياة غير حياتنا من عدالة سماوية غير عدالتنا الأرضية. وفي خضم هذه المعاناة والاختلافات الطبقية المتوارثة أبا عن جد، والتي يحبذ البرجوازيون تسميتها نعمة من الله أنعم بها عليهم واصطفاهم دون كل خلائقه بها، كان آزاد يندب حظه ويبكي والدته المتوفاة، ولم يكن يبلغ من العمر حينها سوى عشرة أعوام، لكن في بعض الأحيان نجد لدموع الصغار معنى لا نجده في عويل الكبار، فما كان لهذا الطفل أن يبكي على أمه لو ضمها الدّهر بين يديه تلك الضمة الأخيرة التي لا مفرّ لنا منها، ولم يكن يرثي ذكراها لو أنها توفيت بعد مكابدتها لمرض عضال ألمّ بها واختطف روحها، لأن هذا الصغير تربى تربية دينية حقّة، فكان في

غياب والدته لا يجد مأوى يأوي إليه ولا مخبأ يقيه ويحمي جسده الصغير من ذلك العالم النتن الذي يحتويه، فتصحبه الظروف إلى الكنائس وبيوت العبادة، حيث يقضي معظم يومه فيها ويصرف جل نشاطه بين أسوارها، وكان يتميز عن أقرانه بالفطنة والذكاء والتعلم السريع، الأمر الذي مكنه من اكتساب الكثير من خفايا الدين وأسرار ملكوته وسمح له بتعلم أسسه ومذاهبه، وكان لمجالسته للقساوسة والأخوات والرهبان تأثير كبير على نفسيته الفتية وعلى فكره الرطب، لكن وفاة والدته لا يرجع سببه إلى مرض ولم يكن قدرا أيضا، إنما جريمة وغدرا من قبل أحد حراس المنجم الذي كانت تعمل به.

كلّما بزغ الفجر تهب إلى عملها من طبخ وتنظيف لقاذورات عمال المنجم من أجل كسب بعض المال، لترشفه مع ابنها آزاد كي لا يضطر للعمل لدى أيادي القهر والاستنزاف. وبقيت على شقائها حتى راودها حارس عن نفسها، لكنّها ارتدّت عنه وامتنعت، فقد كان يكسوها من الشرف والكبرياء ما لا يكسو نساء ذلك الزّمان، الذي شاع فيه التسيب والانحلال ما شاع، لتزداد الطين بلة بينهما بما يكفي ليتحوّل الامتناع إلى شجار وغصب ومناوشة وعنف كانت نهايته أليمة.

قتلت الطباخة جرّاء سقوطها في أحد جيوب المنجم وهي حفرة عميقة لا تجد فيها هواء ولا نورا، وما لبث أن ماتت فيها. هذا الأمر الذي أثَّر في نفسية الصغير تأثيرا عظيما وسقاه كأس حزن لن يتذوق مثله أبدا، كما تغيرت حياته تغيرا جذريا وتلاشت كل أحلامه واندثرت وانطفأت شموع طموحاته وانكسرت، ولم يبق له

بعد وفاة والدته سوى الإقدام والخوض في الحياة، فإمّا أن يعيش عيشا كريما لا تشوبه شائبة، أو يموت بين جوع ومرض وفقر. كذلك كان حال البؤساء أمثاله.

(2)

ولد آزاد في شمال ألمانيا من أمّ إيطالية وأب تركي عثماني، وكانت والدته تنحدر من عائلة شريفة وعريقة ذات نفوذ في إيطاليا، وكانت أصغر أخواتها سنّا، كما أنها كانت تعمل في مجال الأقمشة والخياطة لعدة سنوات، حتى أتقنت الصنعة واستطاعت في سن مبكرة بفضل الأموال التي جمعت من حرفتها استئجار متجر صغير في الضواحي التي كانت تقطن بها، لتحيله إلى دار للخياطة والتطريز، فاشتهرت بجودة أقمشتها وبحسن معاملتها الزبائن وأسعارها المتناولة البخسة. أمّا والده فكان جنديا بسيطا في الجيش العثماني، اشتهر بحزمه وقوته، ناهيك عن إقدامه قبل أن يتعرض لإصابة في ميدان الرماية أودت بعينه الشمال، الأمر الذي أنهى مشواره العسكري قبل أوانه، وتمكن بأموال التأمين التي وفرها له الجيش بعد إصابته أن يسافر إلى إيطاليا، فكان منذ صغره مولعا بالسفر محبا للمغامرة، فاستأجر شقة صغيرة متواضعة تشرف على المدينة بأكملها، ليستأنس فيها بالإطلالة الجميلة التي توفرها له رغم ضيقها، عساه ينسى ولو الشيء اليسير من الكثير الذي هو فيه.

بدأ (سردار شيروان) بتقليب وحيدته في أزقة المدينة وساحاتها تقليبا تملؤه الدهشة والحيرة في هذا العالم المنداح الغريب، الذي يوشك على اكتشافه، وكان قد رسم له خطة سياحية كي يجوبها ويطلع على ما تخفيه من أسرار تلك الجدران الراسخة الباسخة بين أحضانها.

(3)

تنعم الرجل بالعيش الرغيد في تلك المدينة الخلابة، فرغم انحصار مساحتها وصغرها إلا أنها تتوفر على كل شروط الحياة الملائمة له، فقرّر المكوث فيها والاستقرار في تلك الشقة، وقبل فجر اليوم التّالي بعث إلى صديقه الوحيد رسالة يطمئنه فيها على حاله، ويعلمه بأنه قرر العيش حيث هو، فقد ظن أن القدر قد وفر له كل شروط العيش التي يبتغيها من هدوء وسحر طبيعة وهواء عليل وشمس ساطعة وقمر منير.

تلذّذ سردار شيروان لمدة شهرين بحياته الجديدة، إلا أنّ صبابته أوشكت على النضوب، وأموال التأمين وكل مدخراته قاربها الانتهاء، فذهب به تفكيره كل مذهب وسلك به كل المسالك، إلا أنه لم يجد أمامه سوى باب واحد يقدم عليه، هذا الباب الذي يوفّر له مدخل رزق طيب ويسدّ به حاجته ويوفر مطلبه، فلم يجد بدا من العمل، ولم يكن بالشيء العسير أو الصعب عليه، فقد كان يتمتع بكل الشروط التي تسمح له وتمكنه من العمل، كما أن مهارته وسلاسته في التعامل مع الأشخاص تلعب دورا كبيرا في شخصيته، ولا يخفى على الجميع أن أساس الرزق هو حسن المعاملة، وفي صباح اليوم التّالي وقبل أن ترسل الشمس أول خيوطها، استيقظ سردار ولم يكد ينام ساعة واحدة في تلك اللّيلة على غير العادة، ولم يأكل شيئا على غير العادة أيضا، وخرج إلى المدينة وشرع في البحث وكله أمل، عسى أن ينال مبتغاه ويريح قلبه ممّا ألمّ به من قلق وتوتر، وما هي سوى لحظات حتّى استأنف طوافه على محلات المدينة، فلم يترك نحاتا ولا جزارا، ولا صاحب

متجر إلا وعرض عليه طلبه، ولسوء حظّه قوبلت كل تلك المطالب والإلحاحات بالرفض، فمنهم من تحجج بضعف المردود، ومنهم من طلب الخبرة في المجال، وكثير من الأجوبة كانت كلها سلبية في نظره، وبقي على تلك الحالة ساعات طوالا، كانت أطول بالنسبة إليه حتى تمزق الجزء الأمامي لحذائه من كثرة المشي، فلم يستطع الإقدام وهو على تلك الحال، كما كان بعيدا عن مسكنه والوقت بدأ في النفاد، والنهار قارب على الانتهاء، فطلب من بعض السيارة ممن صادفهم أن يدلّوه على أحد ليصلح له ما تمزق من حذائه، أو خياطا في الضواحي ينقذه من موقفه الذي لا يحسد عليه، فدلّه عابر على رجل عجوز يتقن المهنة في تلك الأرجاء، سارع نحو المكان ولم يجد سوى عارضة ضخمة من الحديد تسدّ مدخل المتجر، مكتوب أعلاها "للبيع"، ففهم أنه قد أغلق ولا بدّ له من البحث عن مكان آخر قريب يقضي له حاجته، وبينما هو يتصفح أوجه المتاجر ويسأل الذاهب والآتي، انتهى بصره إلى شابة جميلة تنطبق عليها كل صفات الحسن والجمال، وجهها كفلقة القمر الأبلج، وشعرها الذهبي المنساب يلمع لمعان الشمس في مدارها، وكانت تجلس على أحد الكراسي في رصيف الشارع، تعالج بين يديها قطعة حمراء من الحرير، اتجه إليها يحث الخطى وهو غير مدرك بعد ذهابه إليها، هل يقصد المغازلة أم ينوي السؤال؟. وما هي إلا لحظة حتّى وجد نفسه واقفا أمامها كالتمثال.

رفعت الشّابة رأسها ولم تكد تنظر إليه وتنتبه لخياله حتى طرق صدره شعور لم يخالجه من قبل، وكأن عروقه نضبت من دمائها وضلوعه خلت من أحشائها، أمّا قلبه فكان يوشك على

تغيير محله من شدة الخفقان، وبقي على حاله المتصلبة تلك مدة وجيزة كانت بالنسبة له دهرا طويلا من الزمان، حتى شعر بصوت يدق مسمعه، وإذا بها تطلب منه الجلوس وتعلو محياها ابتسامة بريئة لم تزده إلا وجلا. جلس بجانبها فأخذت بتلك القطعة الحريرية تعرضها عليه، من ثمّ قامت بفتح حقيبتها وأخرجت منها قطعا أخرى من القماش، جمعت بين كل الألوان والأصناف، ولم يطل الرجل حيرته ليدرك أنها قد أخطأت المقصد، وظنته أحد تجّار الأقمشة المفترض أن يزورها في مكانها ذاك. تهلل واغتبط وعلم بأنها فرصته الوحيدة ليطيل حديثه معها، ليتعرف عليها أكثر، ولم يلبثا طويلا حتّى دعته لمرافقتها إلى متجرها لإتمام الصفقة، وكان لم يزل صامتا مكتفيا بإشارات كما لو كان قد استحسن القماش وأعجبه. سار خلفها وهو يفكر في كيفية يصلح بها حذاءه قبل أن تنفصل قاعدته عن غلافه، وطريقة يتقرب بها من الشابة أكثر، ولا يزالان على حالهما من السير في هدوء وصمت ساعة من الزّمن، حتى وصلا إلى متجر جميل يقع في آخر حي، وضع أمام مدخله كؤوسا صغيرة وغرس في كل كأس ثلاثة ورود جميلة، أمّا باب المدخل فكان مغطى بقطعة من القماش زرقاء اللّون، مزينة بقطع من الحرير مختلفة الألوان والأشكال، فاستأنس بهذا المنظر الرائع، إلا أنه لم يحتل في قلبه ما احتله جمال الغريبة التي يتبع.

فتحت الشابة باب المتجر ودعته إلى الدخول بشكل يوحي بالنبل والرقي واللطف، جلس سردار إلى طاولة بجانبها في زاوية من زوايا المتجر، كانت معدة للمعاملات التجارية وللبيع والشراء، ولم

يكن مهتما بكل تلك الأمور، بل كان مشغولا بتقليب بصره في أنحاء المتجر وقد أصابه الذهول من منظر تلك الآلات والأقمشة والطلاء والفساتين المعلّقة، فلم يسبق له رؤية منظر كذلك المنظر في بلده، من ثمّ انتبه إلى الشابة إذ بها تحمل صندوقا صغيرا قامت بوضعه على الطاولة، وأخرجت مفتاحا من جيب حقيبتها وفتحته، ولم يزل هو على حالته من الصمت يراقب بكل هدوء، قامت بإخراج كيس مليء بالقطع النقدية، وضعته أمامه وقالت له: "من فضلك، أخبر سيدك أن هذا هو باقي المبلغ المتّفق عليه، وأن الطلبية الثانية ستكون في الشهر المقبل، وأبلغه سلامي".

أمسك الرجل بالكيس وهو في أمس الحاجة للنقود، تأمله لمدة طويلة وكأنّه يعاتب ضميره عما يفعل، وما لبث أن استعاد كبرياءه المشتت وغلبت محاسن أخلاقه على السيّئ منها، وأخذ يحدث نفسه ويقول: "لا يا سردار، أنت لست بسارق ولا بشحّاذ، ستجد عملا في المستقبل العاجل.....".

وكانت الشّابة قد غادرت مكانها، واتخذت لها ركنا من أركان المتجر تعالج فيه دفتر المبيعات لذلك اليوم، وكانت معها إحدى عاملاتها تحدثها عن أمر من أمور أحد الزبائن، حتى شعرت بيد تلامس منكبها بلطف، التفتت في بعض الدهشة ونظرت إليه في تعجب فقال: "آنستي، هل تسمحين لي بلحظات من وقتك على انفراد؟، هنالك أمر مهم أحدثك فيه".

سارت الشابة معه إلى نفس الطاولة التي سلمته فيها الكيس، تفحصه بفضول، ثم أكمل في حزم: "أعتذر منك أيتها الشابة، لا أستطيع قبول هذا المبلغ، صراحة أنا لا أستحقه. تعجبت من

حديثه، ولكنها لم تتفوه بكلمة واحدة عساها تفهم شيئا مما يرمي إليه، وتقنص حقيقة ما يحاول قوله، وأكمل: "لست الرّجل الذي كنت في انتظاره، كما أنني لست بتاجر أقمشة"، ولم يبلغ حده من الحديث حتّى صرخت فيه صرخة دوت بها أركان المتجر، وأخذت تعاتبه على فعلته تلك معاتبة متواصلة يتوسطها نوع من خيبة لا تقال، لكنها تفهم من عينيها، فقد كانت صفقة مهمة جدا بالنسبة إليها. أطرق الرجل برأسه وأخذ يقلب بعينه الوحيدة وكأنه يتمعن في الأقمشة الملقاة على الأرض، ولم يطل حتّى رفع رأسه ونظر إليها نظرة جدية كمن يحاول البوح بسر لا يعرفه سواه، وقال: "صحيح أنّي أخطأت في حقك آنستي وفعلت ما يستحق معاتبتك، ولكن، هل تدركين ما الشيء الذي جعلني آتي إلى ذلك الكرسي، وما الدافع الذي وجهني إليك؟"، فقالت له باستهزاء: "وأي قماش جاء بك إليّ أيها السيّد؟...". نظر في عينيها وأطال في ذلك وأراد أن يفصح عما بداخله، إلا أن شجاعته الخائنة غدرت به من جديد، ولم يجد مفرا يسلكه سوى أن يقصّ عليها ما كابده في ذلك اليوم، وما لقيه من رفض، والنهاية التي آل إليها حذاءُه، واسترسل يقص عليها ما مرّ به من أحداث في أزقة المدينة، ويشكو لها حالة حذائه مرة ويتذمر من سوء حظه مرات، وبغض النظر عن أنه يحسن السرد والتعبير، فقد أحس بشكل ما أنها مهتمة ولو بقليل مما يقول.

استلطفت الشابة حديثه، وشعرت بقليل من الخجل لصراخها عليه، أو بالأحرى شعرت بنوع من الشفقة على حالته تلك، فطلبت منه نزع حذائه كي تصلحه بنفسها، وكأنها التعويض عمّا بدر منها.

لبس سردار الحذاء، وكان لسانه قد امتنع عن الكلام، فلم يجد شيئا لقوله سوى: "أستسمحك عذرا آنستي، فعليّ الرحيل الآن". بقيت هي في مكانها لم تحرك ساكنا، إلا أن الرجل كان قد احتل محله في نفسها، فلقد أحست من حديثه الصدق دون ملامسته، والتمست في شخصه نوعا من المهابة والرجولة، وفي كلامه الإخلاص والصدق. ظلت تراقبه بتينك العينين الزرقاوين المتلألئتين في جحريهما، وكأنها تبين له بهما الطريق ليقصها بخطاه، إلى أن وصل إلى باب المتجر فوقف عنده هنيهة ثم أدخل يده في جيب سترته وأخرج منه بضع قطع نقدية وضعها بجانب المزهرية، وكأنه يوفيها أجرها وتعبها في استصلاح حذائه.

أعجبت الشابة بسلوكه وأحست بنوع جديد من الشعور يتسرب إلى جسدها من كل الأنحاء، ليلتقي في صدرها ويتجمع على شكل توتر وقلق، ولم يكد يخرج حتى رفعت برأسها إلى السقف وأمعنت النظر فيه، وكأنها تبحث عن شيء ما أو عن سبب مقنع يدفعها إلى اللحاق بالرجل، وما هي إلا دقائق حتى طرق مسامع سردار نداء امرأة آتٍ من آخر الحي، التفت فإذا بها عاملة الخياطة لدى تلك الشابة، وكانت تشير بيدها إليه ليتوقف. اتكأ على أحد الأعمدة الرخامية المنصوبة في ركن من الأركان، وكانت الابتسامة تغالبه على نفسه، وكأنه ألمّ مسبقا بما كانت تحمله العاملة، فكانت نية الابتسام بمثابة قربان لحب بدأ يسري مفعوله في قلبه.

وصلت إليه وقامت بإخراج رسالة معطرة من جيب مئزرها المزين بألوان العلم الإيطالي، سلمته إياها وقالت له: "أمرتني السيدة أن أعطيها لحضرتك". من ثم انصرفت إلى شأنها في هدوء تعلو محياها ابتسامة غلب عليها نوع من الخبث الممزوج بالحياء.

قام مباشرة بعد اختفاء العاملة بقلب الرسالة، وقرأ على ظهرها: "إلى صاحب الحذاء الممزق"، فابتسم ابتسامة طويلة تكاد تكون ضحكا، وكانت كل لحظة تمر عليه تزيده غبطة وفرحا، ذلك الفرح الذي طال هجره منذ مدة طويلة، كاد أن ينسى فيها كل معنى يشير إلى السعادة أو السرور.

**إلى صاحب الحذاء الممزق:**

"وبعد...

سواء قرأت كتابي هذا أم مزقته فهو خالٍ من كل شيء يهمك العلم به أو النظر إليه، أحسست فيك بالشخص الذي أبحث عنه، فقد سبق لك وأعلمتني في محادثتك السابقة، أنك كابدت من التعب الكثير، وعانيت في البحث عن عمل ما عانيت، وبأنك رجل غريب عن بلدنا هذا، لا نسب لك عندنا ولا صديق يؤنسك أو يساعدك، والأمرّ من ذلك ليس لديك مصدر دخل تعتمد عليه، لتسد به حاجاتك، أعرض عليك عملا عندي فأنا بحاجة لشخص يمكن الاعتماد عليه في إيصال الطلبيات ومساعدتي في البيع وشراء الأقمشة، ولا أظنني ذهبت بعيدا، ولا طلبت مستحيلا، فكل ما أطمح إليه هو رجل يعينني وعاملاتي على تدبير شؤوننا،

ويساعدنا في تحسين خدماتنا، فإن همك كتابي فأرجو أن لا تبخل علينا بمساعدتك، ولك عندي من المال ما يكفيك ويرضيك، وإن عزمت فغدا عند الثامنة والنصف صباحا لقاؤنا، أمام نفس الكرسي الذي جمعني وإياكم.

**بولين دي جيان**

ما إن أتم سردار شيروان قراءة ذلك الكتاب الذي بين يديه حتى كسا قلبه كساء من الفرح، وتلاشت كل الهموم والأشجان التي لم يكن يعرف سبيلها ولا مأتاها، وضع الكتاب في جيبه وكان الزمان غروبا، فمشى وهرول، إلى أن قارب بلوغ شقته، وكان يضحك مرة ثم ينتبه إلى نفسه مرّة أخرى، فيخيّل لمن يراه أنه شخص مجنون ذهب بعقله، أو أنّ أيادي الدهر تدخلت لتخطف منه تلك النعمة التي أنعم بها الله على خلقه من البشر واصطفاهم بها، إلا أن الرجل لم يبدِ اهتماما بما كان يدور من حوله، وكان همّه الوحيد هو لقاء بولين في اليوم الذي يليه، ولم يكن ليعرف اسمها لو لم يقرأه على كتابها، فأعجب به إعجابها، وأخذ يلوكه بلسانه وكأنه يتلذذ النطق به، وتمنى لو يتقدم الزمن أسرع من ذلك، فقد ظن بأن ما ألمّه من سعادة، لا تحمله الغبراء رغم اتساعها، كما ظن أن شعاع أمله قد ارتسم له في الأفق القريب، واعتبر ذلك اليوم بمثابة الفاروق بين حظه السّيئ وما ينتظره من مستقبل زاهر وجميل.

دخل الرجل إلى شقته واستراح قليلا ثم اغتسل، وأكل القليل مما وجده في المطبخ، واستلقى على سريره وكله صبر في بزوغ فجر اليوم التالي، وكانت تلك اللّيلة التي مرّت عليه أول ليلة في حياته

يفكر فيها كل ذلك الوقت، فكان يرتب الأحسن من لباسه مرة ويصفف شعره مرة أخرى، ولا يلبث كثيرا حتى يختلف مع نفسه ليعيد اختيار الملابس اللائقة، وبقي على تلك الحالة من التوتر والاضطراب ساعة حتى فرغ من بعض ما هو فيه من توتر وهوس وارتسم له في السماء خيال بولين وإطلالتها المميزة وإشراقتها البهيجة، فارتاح إلى منظره الهادئ الساكن، وظل يسبح في خياله ويلذذ عينيه بما عجز عن نطقه لسانه، حتى مضى اللّيل.

نهض من متكئه، لا تمضي عليه دقيقة إلا وتزيده توترا وتملأ جوانبه قلقا، فقام بتجهيز نفسه ولبس بذلة لائقة خضراء مزركشة ببعض الأحجار الملونة، كانت هدية من صديقه الوحيد. انطلق سردار مع انطلاق أول خيوط الشمس، فمشى إلى المكان المتفق عليه في الرسالة، وكان المكان خاليا من الناس جامدا، فقد نزل الرجل بالمكان أبكر بساعتين عما ورد في الكتاب.

انتظر هنالك ساعة، وساعتين، وثلاثا، حتى اكتظّت الشوارع بالمارة والعابرين، وفتحت المتاجر أحضانها للمشترين والبائعين وظل هو في مكانه، يراقب بوحيدته الذاهب والآتي، عسى أن يبصر بها ذلك الخيال الذي لم يفارق ذاكرته مذ لقائه، إلا أن ظنه بحظه لم يكن في محله، فقد احتلت الشمس محلها من السماء وانتصفتها، وكان الزوال، فعلم بأنها لن تأتي، إلا أنه لم يبرح مكانه من شدة الصدمة التي نزلت عليه نزول الصاعقة على الأرض ليس لشيء إلا أن وقع الخذلان شديد، خصوصا بعد ليلة مليئة بالأماني ومكتظة بالآمال.

لبث هناك مدة لم يكن ليميز طولها من قصرها، ثم تحامل على نفسه ونهض من مكانه، وانطلق مسرعا نحو متجر بولين لا يكاد يلوي ما يدور من حوله، لكن في أعماق سريرته كان يرجو أن يلتمس لها عذرا، ويرى لها سببا يقنع به غضبه ويلثم شقوق كبريائه، ويتغاضى به عما اقترفته في حقه، وما هي سوى لحظات حتى قطع تلك المرحلة التي كانت تفصل بينهما، ووجد نفسه واقفا على مقربة من متجرها، لكنه أحس بنوع من الخجل والتردد، مما جعله يفكر في الرجوع إلى شقته ونسيان كل شيء حصل معه لكن لم يلبث أن استجمع شتات كرامته من جديد، ودخل إلى المتجر وأحاط بعينه في أرجائه، ودار بها في أركانه وقلبها بين زواياه فلم يبصر سوى أربع عاملات ينقحن الأجود من القماش، ويرتبنه انتبهت لوجوده إحداهن وقد علمت سبب قدومه مسبقا، فأخبرته بأن سيدتها غائبة منذ الصباح، وطلبت منه انتظارها إن كان الأمر ضروريا، فهي نفس العاملة التي سلمته الكتاب أمس. قال لها بصوت ثابت خشن: "وأين يمكنني إيجادها؟" أجابته: "لا أعلم سيدي، لكني أظن بأنها قد خرجت اليوم مع السيّد دافيد."، "ومن يكون هذا السيّد؟"، فقالت: "خطيبها يا سيدي، وسيتزوجان في القريب العاجل على أظن، وهذا سبب خروجهما اليوم".

صعق الرجل لسماعه ذلك الخبر صعقة كادت تودي به، وأحاطته هالة من الحزن واليأس لا يشعر بثقلها سواه، بقي واقفا راسخا في مكانه ذاك، ولم ينتبه لنفسه إلا بعد حين، فتحامل عليها وخرج من المتجر وقد ضاقت الدنيا في نظره، ولم يبتعد كثيرا حتّى شعر بوخزة في قلبه فلم يبال بها، ثم تتابعت الوخزات، فخيّل

إليه أن قلبه يرفرف بين أضلاعه رفرفة الطائر بأجنحته، وأنه يحاول أن ينبعث من مكانه ويطير في أجواء الفضاء، فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف: "آه يا بولين... آه يا بولين..."، حتى وصل إلى صخرة عالية على شاطئ النهر فتهافت عليها وأسلم رأسه إلى ركبتيه، وذهبت به نفسه مذاهب لا يعلمها إلا الله.

ظل في يأسه حتى انحدر قرص الشمس إلى مغربه، وبدأ الليل يتجلى محفوفا بحاشية من سحب وغيوم، فلا يكاد يلمح إلاّ من خلالها كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الصفراء على كل ما تحته من صخور وهضاب وتلال، فأضاءها وأضاء فيما أضاءه ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة.

وإنه لكذلك، إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه، وبأخرى ترفع رأسه، فانتبه فإذا هي "بولين" واقفة أمامه ودموع تترقرق في عينيها، فذعر لرؤيتها وظل ينظر إليها نظر الحائر المضطرب، قالت له: "ما بقاؤك هنا وحدك في هذا المكان يا سيدي؟" فقال لها: "لقد زرتك صباح اليوم في متجرك فلم أعثر عليك هناك، ولم أبلغه إلاّ وأنا أقصد معاتبتك على ما بدر منك وعلى نكثك لوعدك، إلاّ أني خرجت منه أشقى من دخولي إليه، فلقد أعلمتني إحدى العاملات هناك أنك خرجت برفقة السيد دافيد كما أعلمتني أن عقد قرانكما سيتم عما قريب، فأحزنني ذلك حزنا عظيما، وكنت أظن أني أستطيع أن أحمل نفسي على الصبر عليك واليأس منك فعجزت، ولم أر بدّا من أن أروّح عن نفسي ببضع قطرات من الدّمع أذرفها في هذا المكان الخالي، فما لا تعرفينه يا بولين أني

أحمل لك في فؤادي هذا من الحب ما لايحمله الفطيم لوالدته ولا العاشق لعشيقته، فمنذ أن رأيتك تعلق قلبي بك وارتاح إليك كما أن عقلي نسج خيالك لتبصره عيني وترتوي به نفسي، ولا أظنني أستطيع العيش من بعدك يا سيدتي، كما لا أظن بأني سأشقى بعد هذا الشقاء شقاء أعظم منه."

رفعت الشابة رأسها إلى السماء وكأنما تنتظر جوابا منها أو ملاكا ينزل عليهما كي يتم لهما ما بدآه، لبثت قليلا على حالتها تلك ثم نظرت إليه وقالت له بصوت تخنقه العبرات: "قد أحطت ببعض شأنك الذي تخفيه عني البارحة، فلا أحسبك بارعا في ستر مشاعرك، كما أني لن أنكر إعجابي بك أنا أيضا، والدليل على ذلك الكتاب الذي أرسلته إليك...."، ولم تبلغ حدها من الحديث حتى انتفض الرجل من مكانه، وأمسك يدها فارتعد جسدها رعدة لم تطرأ عليه من قبل، ووضع شفتيه على مقربة من أذنها وأطرق سمعها وهو يقول: "وما الذي يمنعك عني إذن؟".

نظرت إليه نظرة دامعة تملؤها الحسرة وقالت: "خوفي.... أجل، خوفي الذي يمنعني من ذلك، فأنا يا سيدي أنحدر من عائلة شريفة، كذلك الأمر بالنسبة لدافيد، ولهذا الزواج أهمية كبيرة في مستقبل العائلتين، فإن أمعنت النظر جيدا سيتبين لك أنه زواج مصلحة أكثر منه زواج استقرار، كأي زواج قد عرفته، فإن تم عقد القران سيتم من خلاله والدي أعظم صفقة في حياته فمشروعه هو عبارة عن استصلاح أراض خصبة تقع في الشمال كانت ملكا لجدي مسبقا، وهي أراض شاسعة تبلغ من المساحة عشرات الفراسخ، بل المئات حتى، وفي نظر والدي لا أحد يستطيع

مساعدته على استصلاحها سوى هذا الرجل، فهو يملك من الثروة والنفوذ والإمكانيات ما يكفي لإغاثة كل الفقراء والمنكوبين في هذا البلد، إلا أن فساد أخلاقه يمنعه عنهم، فهوايته وشغفه هما جمع الأموال وتحصيلها، لا مساعدة المحتاجين وإغاثة المشردين.

أما بالنسبة لذلك الأمر الذي يسمونه "الحب"، فلم أتجرع من كأسه معه ولو حتى القليل منه، فمن منظوره الخاص يراني مشروعا ضخما يدرّ عليه أرباحا طائلة تزيد من ثرائه وتضاعف كنوزه، وتعلو بمكانته علوا يبلغ به حدود السماء وترسخه في مجال الأعمال والفلاحة، أما بالنسبة إليّ فلا أراه سوى رجل مهووس لا يرى في تصوراته سوى ما هو قابل للتحول إلى مال أو أصول، كما لا يخفى علي أنه رجل منحل الأخلاق ذميم الطبع، فقد سمعت مؤخرا من بعض مقربيه وليتني ما سمعت، بأن إحدى عشيقاته تقوم بمراودته كل ليلة في قصره، كما أني أعتبره خرابا بل دمارا لمستقبلي، وقضاءً على حلمي، ذلك الحلم الذي يزور مضجع كل فتاة قبل أن يغالب أجفانها النعاس، لا أستطيع حتى أن أتخيل بأني سأكون زوجته ورفيقة دربه المليء بالأشواك، وأي رفيقة وأي رفق في حياة تنبثق كل أسسها من منبع الطمع والفساد، هذا إن طال الزواج إلى ذلك الحدّ."

وضع سردار أنامله على شفتي بولين وكأنه يشير إليها بالسكوت ونظر إليها نظرة دامعة عاطفة وقال: "تزوجيني يا سيدتي، زواجا لا تشوبه شائبة، ولا يخفي بين طياته خفية ولا مصلحة، فأنا وكما تعلمين عني، لا أملك من المال ما يسمح لنا بالعيش في رغد ورفاهية، إلا أني أعدك وأقسم لك على تحصيل ما يسعدك

ويرضيك وما يكفينا للعيش الهنيء، كما أعدك بأصدق حب وأحب قلب، وأعطف شخص، وعد شرف أحبذ الموت على خيانته أو نكثه، ولا أظن بأن والدك سيقبل هذا الطلب مني، فرجل فقير مثلي لا يلبي له ولو مثقال ذرة من مصلحة، ولا يقضي له أهون ما ينضح به قلبه من أمانيّ وطموحات، لا يصلح للمصاهرة في نظره على ما يبدو، فعالجي قلبك يا بولين، واختاري أجود ما في عقلك وها قد عرضت عليك عرضي، وأعطيتك عهدي، فلم يبق لي من الحديث سوى تعطير شفتي بتكرار اسمك، فإن كنت تحملين لي في قلبك من الحب ما أحمله لك، فلقد قررت الرحيل ولم يبق لي في بلدكم هذا سوى أسبوع واحد، أعالج فيه بعض الأمور، وعليك أن تعلمي أنه مهما كان خيارك فلن يردعني عن حبك ما دامت السماء تسبح فوق خيالات الأرض، رجائي الأخير أن تفكري مليا في انتقاء الخيار الذي يسعد حياتك ويرضي ضميرك، وها هو أول جزء من الليل قد مضى، ولم ننتبه، وأظن أن أهلك قلقون عليك الآن وهم في صدد البحث عنك، فارجعي إلى منزلك، وأعدك أن أعرّج على متجرك قبل سفرتي هذه، لأسمع من حضرتك جوابا، وإن لم أظفر بما أصبو إلى سماعه فلكي أرى من خلال هذا الوجه ما لا يراه سواي، وأشعر بنبض قلبك الذي لا يشعر به غيري، فلو علمت أن سبب قدومي إلى بلدكم هو فقدان عيني، لحرصت على فقدانها أبكر من ذلك، ولو اضطررت لاقتلعتها بيدي.

افترق العاشقان في تلك اللحظة، وسلك نجده كل منهما واتخذ سبيله متأثرا بما سمع من الخيال الثاني، وكان إعجاب بولين بسردار قد استحال إلى حب يشعل صدرها ويتأجج في داخلها، فكلماته الصادقة وحبه المخلص وقعا فيها وقوع النبال في ساحة المعركة، ولم يكن قد مضى على التقائهما أكثر من يومين زرعت فيهما بذور الحب، فاليوم الأول زرعها أما الثاني فسقاها سلافا حلوة لا سقيت لهما من بعدها.

افترق الجسدان إلا أن الأفئدة لا زالت معلقة على تلك الضفة والعقول مشغولة بتلك البسطة.

مضى الرجل في سبيله وكان القمر يلمع بين عرش السحب في السماء لمعان القطعة المعدنية في رمال الصحراء، ثم لم يلبث أن غشيته سحابة داكنة من بين السحب التي كانت محيطة به فصار الظلام حالكا مدلهما، لا يستطيع المرء أن يرى فيه أبعد من أنفه، ولا زال يمشي هائما ضائعا على وجهه حتى شعر بشعور غريب يعبث بجسده، فلم يبال به وأكمل سيره، وما هي سوى لحظات حتى تضعضع وتخاذل وشعر أن نفسه تحاول التسرب من بين جنبيه، واستحالت ملامح وجهه المشرقة إلى صورة مخيفة مرعبة، وظلت أطرافه ترتجف ارتجافا شديدا، فتهافت على كرسي بجانبه في إحدى الساحات العامة، وصمت صمتا عميقا لا حسّ فيه ولا حركة، ثم أخذ يعود إلى نفسه شيئا فشيئا حتى هدأ فألقى نظرة على ما يحيط به، فإذا هو على مقربة من مسكنه على بعد حيّ واحد فقط. نكس الرجل رأسه مليا ثم نظر إلى السماء وصرخ بصوت كهزيم الرعد صرخة دوت بها أرجاء المكان

أفرغ بها بعضا مما في داخله، وأحاطت بقليل من الهم الذي يسكن سريرته، ولم يدم طويلا حتى ترك مجلسه واستأنف سيره، وكان في كل خطوة يخطوها يرتسم له فيها خيال بولين، ويتجسد أمامه ضاحكا مبتسما فيهرول في مشيته ويمد أطرافه، وكأنه يحاول اللحاق به، أو التمسك بجزء من حناياه يجره أينما ذهب، ويبقى على ذلك فترة حتى يرجعه نباح الكلاب وعصف الرياح إلى وعيه وأحس في تلك اللحظات أنه يحمل شقاء وبؤس العالم كله فوق كتفيه، فكانت هذه أول مرة أحبّ فيها حبا صادقا نقيا لا يخفي بين ثناياه شائبة، فلم يكن ليزوره مثل هذا الشعور من قبل وكيف يفعل وهو الذي ترعرع يتيما في دار للأيتام؟ ولم يدرك سن الرشد حتى انخرط مع الجيش، وظل فيه حتى سلب منه القدر أحد نوريه وأطفأه للأبد.

أشرف الرجل على مسكنه، وكلما اقترب أكثر يتضح له خيال أسود في الظلام، يتحرك مرة ويسكن أخرى، إلا أنّ ظنه هذه المرة لم يكن صائبا، فلم يكد يبلغ مدخل البناء حتى وقعت قطعة بيضاء من نور القمر المتسللة بين الغيوم على ذلك الخيال، فاتضح له أنها امرأة تغطي الظاهر من وجهها بخمار أسود، فارتاب لمنظرها وزاحم الهم الذي يحمله في قلبه بعضا من الخوف، بقي واقفا شبه واعٍ بما يدور من حوله، ثم اقتربت منه قليلا وكشفت له عن وجهها، وكانت نفس عاملة الخياطة عند بولين، فازداد ارتيابه أكثر، وأخذ يسأل نفسه عن سر قدومها، وسبب مجيئها وكان يتضح للناظر إلى ملامح وجهها الرعب و الارتباك، تلك الملامح نفسها التي ترتسم على وجه الواقف فوق خشبة المشنقة ينتظر

ساعة إعدامه، تقدمت نحوه وأخرجت رسالة مغلفة من جيبها بيدين مرتجفتين، وقبل استلامها قالت له: "أتمنى لك كل التوفيق يا سيدي"، وانطلقت مسرعة، لتبتعد شيئا فشيئا حتى اختفت.

قام الرجل بفتح الرسالة، ولم يكد ينهيها حتى أخذته كظمة شديدة، فذهل عن نفسه وظل مستغرقا في ذهوله، ثم اتجه مسرعا إلى شقته وقام بحمل ما تيسر له من الأمتعة وانطلق في الركض، وسلك نجدا لا يعلمه إلا الله.

(4)

بعد انقضاء خمسة أسابيع من التعب والشقاء والبؤس والعياء، كشف الدهر عن محاسنه، وعرّت الأيام مفاتنها وجمع القدر بين القلبين المتحابين، وتمكن سردار شيروان من الزواج ببولين دي جيان بعد مكابدتهما وزرا لا يتحمله بشر.

وكانا قد غادرا إيطاليا وسافرا إلى شمال ألمانيا حيث أتمّا آخر ما بدآه هناك، وتم عقد قرانهما في بلاد غير بلديهما، وبين أناس لا يمتّون لهما بصلة، ولا يقربونهما بقرابة، فهذان العاشقان اللذان يبدوان مختلفين في النسب والوطن والدين، لم يحل بين حبهما حائل، فالرجل ينحدر من عائلة فقيرة، ونشأ في بلاد غير بلاد بولين ودينه غير دينها، فهو رجل مسلم وهي شابة مسيحية، إلا أن كل هذا التنافر بين جسديهما لم يصل إلى ما يخفيانه وما يتستران عليه بين أضلاعهما، واجتمعا على نسب آدم وحواء، ووطن حيث الهدوء والأمان ودين الحب والتضحية والوفاء.

وقد تمكنا من شراء كوخ صغير بسيط بإحدى الهضاب يشرف على سهول خضراء جميلة، تتوسطها بحيرة زرقاء صغيرة وتحيط به غابة كثيفة، تتخللها طريق منحدرة بسيطة، وكانت هي الوسيطة بين عمل سردار ومسكنه، وسبب رزقه وسبب سعادته، فبعد هجرتهما إلى ألمانيا تمكّن الرجل من تحصيل عمل في مجال البناء يسدّ به حاجاته ويوفر به مقتضيات زوجته.

سعد العاشقان بتلك الحياة، فلم يمض يوم واحد إلا وملأ ما بينهما حبا ومودة، وزاد زواجهما قوة ومتانة رغم بساطة أسلوبهما في العيش، إلا أن البساطة عندما تلتقي بقلب نقي تغدو فنا في الحياة.

مرت الأيام مسرعة، وحل اليوم الذي طالما انتظراه وصبرا على قدومه، فأحال الفرحة إلى فرحتين وأتم السعادة وأكمل اللمة.

حملت بولين بجنين، أنساهما كل ما مرّ عليهما من هم وحزن، وأثلج صدر الرجل واستحوذ على مشاعره، وأنساه الكثير من تعبه وشقائه.

لكن كل ذلك لم يكن كفيلا بإبعاد أيادي الدّهر الغادرة وإلهائها عن العبث بحياتهما وتنكيد استقرارهما، فبعد مرور خمسة أشهر من حمل بولين تدهورت حالة سردار الصحية، وأصابه مرض خبيث استنزفه، فاضطر إلى العزوف عن العمل، والتوقف عن ممارسة كل نشاط كان يقوم به، ولحسن الحظ كان لزوجته بعض المدخرات التي وفرتها للتكفل بابنهما، فارتشفتها هي وزوجها ارتشافا فيه من الشح والحرص ما لا يطيقان، كما تمكنت من الاستعانة بها لشراء الدواء، وقامت ببيع كل مجوهراتها لتوفير الأكل ولتسديد تكاليف العلاج المضنية، إلا أن حالته لم تلبث أن تدهورت وتقهقرت، فلم يستفد جسده من أي علاج ولا دواء، وبين الصفحات كان يلهي نفسه ويروّح عنها كل ليلة بقراءة ذلك الكتاب الذي أرسلته بولين مع عاملتها في تلك الليلة الليلاء من حيث لا تراه ولا تنتبه إليه، فيجد فيه الأنيس والرفيق والصاحب الذي يطرد اللواعج ويذهب الآلام، ويرجع به إلى يوم انتهى فيه كل شيء

وبدأ من جديد، ويعيد إلى مخيلته كل اللحظات الجميلة التي جمعته بها من الحذاء الممزق الى يومه هذا.

من بولين دي جيان إلى سردار شيروان.

**وبعد....**

"شوقي إليك رهين قلبي، وقرين صدري والكفيل باحتواء فكري وتفريق صبري، وسمير ذكري ونديم فكري، لا يستقلّ به نسيان ولا يقوى عليه صبر، يكاد يكون لزاما، ويعد عشقا وغراما، خيالك حرك جوانحي وهزّها وملكني، خيالك أخذ خاطري وأكثر عليّ السؤال، وعبث بمورد قلبي ومصدره، ومحق الماضي وسحق أباطيل الحاضر ومنحني بصيرة الأنبياء في رؤية المستقبل، مستقبل تسوده الظلال من دونك وينيره صدق كلامك ووجودك، أوسعني مضضا فراقك، وأراني الوجود حسرة وعسرة، فيا له من شوق يزيد اللحظات توقدا وتأججا، ويشعل قلبي، إن لم يكن كل هذا الشوق حبا فهو عشق يحشو ضلوعي وما حولها ليزيد الضغط على تلك العضلة المعتمة في صدري، التي لم يكن لها نصيب في حياتي سوى ضخ الدم. لا زلت لا أصدق إن كان في مقدور هذا القلب الصغير تحمل المزيد، فأرجو كل الرجاء أن يصلك كتابي في ساعته، وها أنا ذي أنتظرك على تلك الضفة، لتتم معي ما بدأناه، فلا أحسبني أقدر على العيش مع رجل غيرك، فكفاني همّا على فراقك، إلا أني نفضت تراب أهلي عن يدي.

**المحبة بولين.**

(5)

استفاقت بولين صباح "أحد" على أنين خافت هادئ، فدارت بعينيها في أرجاء الغرفة، فإذا به زوجها وقد علت وجهه صورة مرعبة مفزعة، كان يتصبب عرقا واستحال لونه، وتغير مزاجه، فوثبت نحوه وأمسكت بيده مرتجفة خائفة لا تدري ما تقول أو تفعل، انتبه إليها وابتسم وحرّك يده في إشارة إليها بالاقتراب، دنت المسكينة من زوجها بعينين دامعتين، فمسح على وجهها بكفه وهمس في أذنها بصوت تخنقه العبرات وقال: "يوخز القلب وخزتين، أمّا الأولى فللحب الأول، وقد سبق وظفرت بها في إيطاليا، أما الثانية فلا أظنها سوى للضمّة الأخيرة"، وما وصل حده من الحديث حتى ثقل لسانه وتضعضعت عزيمته، واضطربت أطرافه وارتعدت مفاصله، وأخذ يزفر زفيرا شديدا، ويئن أنينا محزنا، ويسعل بين هذا وذاك سعالا كمن يحاول التخلص من شيء ما يحول دون امتلاء رئتيه بالهواء. لم تجد بولين وسيلة أخرى غير النظر إلى ذلك الخيال مرة والنظر إلى الجنين الراقد في بطنها، كمن تحاول الوصل بين الأب وابنه للمرة الأخيرة ولو بتلك النظرات المستسلمة للقدر، وبكت على صدره واحتضنته، وأخذت تجهش بحرقة تدمي القلوب، فرفع يده ووضعها على رأسها وقال: "ارفقي بنفسك يا حبيبتي، فما أنت أول ثكلى على وجه الأرض، ولا فقيدك أول راحل عنها، وإن في رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين وجزاء للمحسنين".

في هذه اللحظة ارتمت بولين على يد زوجها، وأخذت تقبلها وتقول: "لا يا سردار.... لا يا سردار ".. لا تقل مثل هذا الكلام، ماذا سأصنع من بعدك يا زوجي؟ وأنت كل ما أملك في هذه الحياة، وكل من تبقى لي فيها، هل يعقل أن القدر الذي جمعنا هو نفسه من يفرقنا؟ هل بالإمكان أن تكون عدالة السماء على هذا النحو من الإنصاف؟، كلا، لن أسمح برحيلك ولن يصل بغض الحياة إلى هذا الحد من الانحطاط..."

في تلك الساعة شعر الرجل بوجع شديد في قلبه، فأدرك أنه وجع الفراق، اقترب من زوجته قليلا وضمّها إليه ضمة أخيرة وقبلها قبلة باردة على جبينها، فاضت روحه فيها.

(6)

استفاقت بولين في فجر اليوم التالي، رأت (موري) وهو أحد معارف زوجها وزميله في العمل، كان برفقته زوجته، وأبناؤه الأربعة يجلسون تحت قدميها، يبكون الفقيد ويتوجعون له. ظلت شاخصة ببصرها سابحة في ذاكرتها، عساها تسترجع بعضا مما هي فيه، ثم التفتت إلى الرجل وقالت له: "هل دفنتموه؟..."، فأطرق واجما وقال لها بصوت خافت: "أجل يا سيدتي، منذ الأمس". قالت: "وأين ذلك الكتاب؟.."، فسلّمه لها. طلبت منه الانصراف، فأجاب وأخلى لها المكان هو وأسرته، فلما فرغت بولين لنفسها أخذت تقرأ الكتاب الذي لم يغادر أنامل زوجها، كتاب جمعهما تحت سقف واحد في يوم من الأيام، وكانت نفسها تتطاير لوعة وأسى كلما قرأت حرفا، إلى أن فرغت منه، فبكت ما شاء الله لها أن تفعل، ثم أخذتها حالة من الفزع وكأن عقلها لم يسلم بعد بما حصل وقلبها لم يتقبل كل ذلك الألم والوجع، فحقيقة أنها لن ترى زوجها مرة أخرى كفيلة بنسف استقرار فكرها وتعتيم واقعها بظلال الماضي المؤلم المليء بالذكريات الموجعة، هي نفسها الذكريات التي أسعدتها في يوم ما، من كان يدري أن ما يكون سببا للفرح مرة سيكون مجرد تذكرة كفيلة بكسر قلبك في المستقبل؟.

ظلت مستغرقة في حالتها لساعات حتى انتصف الليل، وتوسط القمر السماء، فثارت من مكانها فجأة كمن يتلقى خبرا لم يكن ينتظر سماعه. خرجت راكضة من منزلها نحو المقبرة، وكان الجو غاضبا كئيبا والرياح تهب بشدة، والسحب تحيط القمر من

كل جوانبه، فيبدو كوجه ملك يتفقد الذاهب والآتي، وكانت المقبرة تقع في مكان منعزل بعيد عن كل شيء يمت للحياة بصلة، وكان يحيط بالقبور أشجار راسخة كأنها شواهد على كل من دفن هناك. تبدلت ألوانها واستحالت أغصانها إلى أعمدة ميتة متداخلة ومتضاربة فيما بينها، تبدو للناظر من بعيد كجيش بكامل عدته، تتشابك رماحه ورواياته لتخلق لوحة الموت. بقيت بولين تسير هائمة على وجهها لا تدري إلى أين تذهب، وكانت قد دخلت المقبرة من جهة أخرى غير تلك التي يتخذها المارة والراجلون ليصنعوا بكثرة مشيهم عليها ممرا خاصا، يهدي الزائر بغير عناء أو حاجة للسؤال. لاقت من العناء وصعوبة المشي ما كان يفقدها صوابها لترمي بجسدها بين الأشواك والأغصان المتساقطة، وتبكي وتئن حتى يرجع لها القليل من وعيها، وتكمل سعيها رغم شح القمر بنوره في تلك الليلة، فيهديها السبيل مرة ويضلها مرات. وكانت أصوات الرياح المتداخلة في الأغصان تثير صفيرا شديدا يكاد يشبه صراخ الأحياء، فيتملك قلبها الرعب وتسري في جسمها رعشة توهن خطواتها، ولم تزل تتصفح أوجه القبور حتى أدركت قبرا حديثا لا تزال تربته رطبة، فأقبلت عليه تتصفح جوانبه. قرأت بشعاع ضعيف مصدره القمر اسم سردار شيروان فارتمت تلثم تربته وأثره، وتمرغ وجهها بصفائحه وأحجاره وبكت بشدة، وبين طيات كربها كان يدق هنا وهناك في أعماق نفسها جرس الاستسلام للقدر، ولا يلبث أن يعوضه جرس الذكرى، وبقيت تنازع فقيدها بشدة، ثم همهمت بصلاة قصيرة تقطعها العبرات، كان آخر ما فيها "سأحبك إلى الأبد". وانصرفت لشأنها وهي تقول: "قد كنت أرجو

من الحياة أن أدفن بجانبك يا سردار، في نفس الزمان، ولم أوفق في ذلك، لكني أحسب أن هذا مني غير بعيد".

(7)

صارت بولين منذ ذلك اليوم متخاذلة كجسد بلا روح، وكجثة هامدة بقلب بارد، فقد كل معنى للحياة وكل معنى للفرح. صار لونها أصفر وتشكّلت تحت عينيها هالات سوداء تدل على التعب الشديد والشقاء المضني، لم تعد تحب ما كان يستهوي نفسها من قبل، ولم تعد تمارس أي عادة تربطها بتلك الحياة المليئة بكل ما يشير للسعادة من وجه، وحاولت صنع مكان عميق مظلم أشبه بالجب داخل قلبها لترمي فيه كل شيء يجعلها تحس بذلك الشعور الذي سئمت من ملازمته لخلدها واحتوائه لملكتها وكسره لإرادتها كلما حاولت أن تبدأ من جديد.

كانت توجعها الذكريات، وتذهب براحتها وسكونها، فتبكي كلما تراءى لها ذلك الخيال وهو يداعب خصلات شعرها الذهبي، ويلعب بشحمة أذنها بأنامله ويقربها إليه لدرجة تكاد فيها تحس بتداخل جسديهما وامتزاج روحيهما، وتصرخ راثية حظها: "آه يا زوجاه... آه يا سردار.. ما الذنب الذي أذنبت وما الإجرام الذي أجرمت حتى أنال هذا العقاب القاسي من القدر؟، كل شيء لم أطلبه من الحياة قامت بتوفيره لي، أما تعلقي بك وطلبي لك كان بمثابة تسليم مستقبلي للقدر اللعين، كيف كان ليسير الأمر لو أنني أخفيت حبي ولم أظهره للحياة؟ أرجوك يا سردار عد.. ارجع إليّ لنحب بعضنا سرا هذه المرة، ونوهم القدر أننا أعداء، أرجوك فلتعد، آه على عدالة سماوية لم تمس أيادي القهر والاستنزاف ولم تدركها، وأقامت عدلها على الفقراء والمساكين الذين تسلبهم

ما يحبون ويشتهون بسرعة، فكيف لي أن أعيش من دونك الآن؟ وأفرح من بعدك وأنت زوجي وأنت أخي وأنت أبي وكل أهلي؟، أنت سبب عيشي وسبب سعادتي، أنت كل ما أملك وكل ما يمكن أن أملك، أحبك يا سردار، أحبك."

ولا تلبث حتى تدرك نفسها، فتستغفر لذنبها وتقنع بمشيئة القدر وتسلم أمرها لله. ولقد استيقظت صباح يوم من الأيام ضيقة الصدر كثيرة الضجر، وكان قد مضى على وفاة زوجها بضعة أشهر، فخرجت من المنزل هائمة على وجهها ومشت في طريق ممهدة بين المزارع لا تدري أين تذهب، ولا أي غاية تريد واستمر بها المسير بضع ساعات فإذا هي تشرف على قرية "ولسبانخ"، فأكملت سيرها، وكانت تشعر بشعور غريب لم يشعر به جسدها من قبل، فأدركت أنها مقبلة على الولادة ووضع الرضيع، وكان لوفاة زوجها ومفارقته أثر كبير وبالغ في سريرتها، مما جعلها تنسى أمر جنينها أو العناية بنفسها، فاتخذت لها صخرة صغيرة على قارعة الطريق مجلسا لها تعالج فيه شأنها، وكانت تعلوها صورة المتوتر المضطرب، وترتجف ارتجافا شديدا وتتصبّب عرقا.

بقيت كذلك تتألم مرة وتئن مرات، حتى انتبه إليها أحد السيارة هناك، كان برفقة زوجته على متن عربة، فاستطلعا أمرها، وأدركا أنها موشكة على الإنجاب، فقاما بنقلها على جناح السرعة إلى إحدى الدور في القرية، مخصصة لتوليد النساء والعناية بالأرامل ويشرف عليها عدد من الأخوات والراهبات، وقد سخرهن أحد قساوسة القرية لإعانة النساء ومساعدتهن على وضع أولادهن

وتوفير العناية الممكنة لهن، من دون مقابل ولا مال، وتمكنت بولين أن تظفر بساعة من الراحة في تلك الدار بعد إدخالها، لكنها لم تلبث طويلا حتى عاودها نفس الشعور ورجع إليها الوجع، ولكن في هذه المرة كان الألم شديدا، وكان التعب قد نال منها مناله والعياء استنزف طاقتها، فكابدت واحتملت رغم وهنها، وقاومت الشيء الذي لم يكن في مقدورها، وظلت كذلك حتى علا صوت بكاء وصراخ الرضيع في أرجاء الغرفة، ودوّى الصراخ في أركان تلك الدار، ولم تكد بولين تسمع صوت ابنها حتى ارتعش جسمها رعشة شديدة، جاءت عليها بكل ما تبقى لها من قوة، فألقت برأسها على الوسادة ولم تستفق إلا على شمس اليوم التالي. أسدلت الرموش عن تينك العينين الزرقاوين، لكنها لبثت لحظة وكأنها تعالج المكان وتتفحصه، فدارت بعينيها في أرجاء الغرفة لتنتهي دورتها على طفل صغير يغط في نوم عميق بجانبها. استجمعت شتات ذاكرتها وأدركت ما فاتها، فألقت عليه نظرة طويلة صامتة، لا يفهم معناها سواها، وكأنما تخفي في طياتها ألمها وشقاءها واشتياقها، ورأت في ذلك الطفل حياة جديدة خالية من المصاعب والمتاعب، فاستأنست به، وفرحت بقدومه فرحا شديدا أنساها بعض ما عاشته في السابق، وخفف عن عاتقها معاناة الماضي. شعرت في تلك اللحظة أن صدرها قد شق إلى شطرين، متألما وآمرا بالمغادرة أحست براحة كانت قد هجرتها منذ زمن طويل.

استرخت ومدت يدها إلى رضيعها فاحتضنها بين كفيه الصغيرتين وهو لا يزال غاطا في نوم بريء، غير محيط بما مرت عليه والدته، وظلا على حالتهما تلك زمنا، حتى جاءت بابهما إحدى

المسؤولات في الدار، تدعى الأخت إحسان، وهي امرأة مسيحية من أصول عربية، وكانت تحمل بين يديها دفترا صغيرا كثير الصفحات. مشت نحوهما وجلست على مقربة منهما، وكانت بولين تشعر ببعض من الخجل لأنها في حالة مزرية لم تسمح لها باستقبالها، إلا أن تلك المرأة لم تكن مبالية بما حولها، كما كانت تتضح عليها ملامح الجدية والانضباط. ألقت تحية قصيرة وقالت: "هل هذا هو طفلك يا سيدتي؟.."، فأجابتها بولين: "نعم هذا هو ابني.."، فقالت لها: "أنا المسؤولة الإدارية هنا، وسبب قدومي إليك الآن هو لتسجيلك أنت وابنك هنا عندي لإتمام بعض الإجراءات الإدارية وأحسب أنك قد اخترت له اسما يليق به".

أغمضت "بولين" عينيها ودخلت في صمت طويل، كانت تقلّب ذاكرتها عسى أن تصطفي لطفلها اسما، فلم تجد سوى الذكريات الحزينة، وهي كذلك وقع في ذاكرتها ذكر رجل صالح يشهد الكل له بحسن أخلاقه ونبل قيمه، وكان الرجل بمثابة الفاروق بين المعروف والمنكر، فلا يختلف اثنان أو يتخاصم عصبة من النّاس إلا ويفصل بينهم، وكانت بولين تذكره جيّدا، فلقد كان من نفس المدينة التي نشأت فيها في إيطاليا، إلا أنه توفي قبل أن تبلغ سن الورود. فتحت عينيها ونظرت إلى الأخت نظرة كلها أمل في أن يكون ابنها مثل ذلك الرجل الصالح، ويمشي على نفس تلك الخطى التي خطّها الفاروق. وقالت: "أما أنا فاسمي بولين شيروان، واختارت لقب زوجها لإكرامه في مثواه، ولأنها تعلم أن الرجل المسلم إذا ما تزوّج امرأة يعطيها كل شيء بما في ذلك لقبه، كما أنها لم تكن تشك أن بولين وسردار يمكن أن تحول بينهما حائلة أو تفصلهما فاصلة

حتّى الموت نفسه، فإن تمكن من تفريق الجسدين في نظرها فلا بدّ له، ولا سبيل أمامه يخوله المساس بالروحين، ثم قالت: "أما الرضيع فأسميته آزاد شيروان، وكان هذا اسم الرجل الذي تأثرت به في طفولتها وأسمت عليه صغيرها في كبرها.

ظلّت بولين في تلك الدار أسبوعا، استعادت فيه نشاطها وبعض عافيتها، ووفرت لها إحدى الأخوات عربة يقوم عليها أحد الشباب من الرهبان، ليوصلها إلى كوخها، فتشكّرت صنيعهم وأثنت على إحسانهم وانصرفت.

(8)

مضت الأيام والأشهر وتحوّلت إلى فصول، وهذه الأخيرة تحوّلت بدورها إلى سنوات أخفت بين صفحات قدرها من الأحداث والأهوال والأفراح ما لا يعدّ ولا يحصى، فكانت بولين تمتهن الخياطة لتعين نفسها، إلا أنها لم توفّق في هذا المجال فغيّرت الحرفة، واشتغلت من بعدها في العديد من الأعمال، لينتهى بها المشوار في ذلك المنجم، حيث كان آخر عهدها بالشقاء، وسبب انتقالها إلى دار القرار بعد عشرة أعوام من وفاة زوجها وولادة قرة عينها، توفيت والدة آزاد السيدة بولين شيروان على يد حارس من حرّاس المنجم، وفاة امرأة عفيفة طاهرة، واستطاعت اقتطاف تأشيرة اللّقاء بزوجها أخيرا بعد كل هذا الوقت، ولم يكن ليحزنها شيء بعد وفاتها سوى هذا الطفل المعصوم، الذي ترك بلا أب ولا أم، ليواجه الحياة بغير سند، فيا له من زمان غادر يخفي بين ثناياه من الشقاء والبؤس ما يمكّنه من تعكير بحر بأكمله، كذلك هي سنة الحياة، وكذلك هي حال الفقير المسكين في ذلك الزّمان.

دفنت السيّدة شيروان في ظهر أحد، وهو نفس اليوم الذي دفن فيه زوجها وأخذ لها أحد الأركان كقبر بجانب قبره، كما حضر الجنازة نفر معتبر من المعزين، منهم من عمل معها ومنهم من عمل مع زوجها، وثلّة أخرى من أهل القرية، وكان يقف بين هؤلاء وهؤلاء طفل صغير، يبكي بكاء يدمي القلوب، ويصرخ صراخا يهز الأنفس ثم يهدأ لحظة، ويكمل رثاءه على والدته.

كان ذلك الصبّي وحيدها "آزاد"، الذي لم يبق له بعد وفاة تلك المرأة النبيلة المخلصة التي شهد لها الغائب قبل الحاضر، والقاصي قبل الداني، بحسن الخلق ورتابة الجوار، وحب النّاس والإخلاص في العمل، سوى طريقين اثنين، إما الإقدام والخوض أو الإدبار والخنوع. بقي الحضور يحيطون القبر، يهمهمون بصلوات لا تكاد تفهم، أو يفقه فيها قولا، حتّى بدأت الشمس في إعلان انسحابها ومغادرة ما احتلته من وسط السّماء، معلنة بذلك انتهاء المراسم وانقضاء العزاء. وما هي سوى دقائق قليلات حتّى نفدت المقبرة ممّن كان فيها، ولم يبق هناك للناظر سوى شبح صغير أخذ له جذعا صغيرا بين القبرين يلثم تربتيهما بحرقة، ويبكي الساكن فيهما بيأس، وبقى على حاله مرحلة من الزمن إلى أن قارب وقت الغروب، فلم يكن مدركا لما حوله بعد ذهوله الطويل عن نفسه، معتزلا الدنيا ومنفردا بذاته في عالم برزخي بين نور الحياة وظلمة الموت، غارقا في بحر من الهموم ليس له حدّ، وكانت تأخذه كظمة من حين إلى حين تؤلم صدره وتضيق عليه تنفسه، بقي جالسا على ذلك الجذع مطأطأً الرأس، شاردا وتائها حتّى شعر بخطى تقترب منه رويدا رويدا، لم يبال بها ولم يكترث لها، إلى أن أحسّ بيد خشنة تلامس كتفه، فتغير لونه وتبدّلت ملامحه وأخذت أطرافه في الارتجاف والاضطراب، فقد ظّن أنه شبح أو روح تائهة أو جثة هامدة خرجت من قبرها لتضع حدا لعويله وصراخه، فقفز من شدّة الهلع والخوف قفزة انتهت به إلى الحافة المقابلة من قبر والده، وما إن التفت حتّى رأى أمامه رجلا كهلا تتضح عليه ملامح النبل، ويبرز هندامه مظهر الثراء، يحمل في يده

الشّمال سيجارة خشبية ثمينة مرصعة بالألماس، ومطلية جوانبها بطبقة رقيقة من الذهب الخالص، ويضع على رأسه قبعة قطنية لا يرتديها سوى الخاصة من النّاس. نظر الرجل إلى ما حوله ثم نظر إلى آزاد بعين المستعطف الحليم، وقال: "يبدو أنك لم تعرفني يا بني"، ثم صمت قليلا وأكمل: "لا يهم الآن من أكون أو من أين جئت، الأهم هو أني رجل شريف ينوي خيرا بك، ولا أحسبني راجعا إلى بيتي اليوم إلا وأنت برفقتي، فلا أرى أنه يوجد من يقوم على أمرك بعد الآن، فاسمع مني كلمتي، عسى أن أفيدك في شأن من شؤونك، وإن لم ترتح معي ولم يطب لك مقامي فلك عندي وعد أن أتركك لحالك وأدعك تدبر شأنك".

دقق آزاد ثمّ رفع رأسه ونظر إلى الرجل وعيناه حمراوان، تحيط بهما هالة من السواد من شدّة البكاء، وقال: "لا أحسبني سآتي معك إلاّ إذا أطلعتني على أمرك وكشفت لي عن سبب كرمك واهتمامك"، فأجابه الرجل بعد صمت وجيز: "لا أستغرب سؤالك يا بني، فأنت ابن هذه المرأة الشّريفة، وأشار إلى قبرها، فلم نعرف عنها سوى الذكاء والجدّية طيلة الأيام التي قضتها معنا، ولا حرج في إجابتك، فيبدو لي أنك ورثت عن بولين فطنتها، ثم قال: أما أنا فاسمي "مولر رودوفسكي"، صاحب المنجم الذي كانت تزاول به عملها والدتك، وقد فجعت لخبر وفاتها، واستطلعت من بعض معارفي عن شأنك يا صغيري وأردت بك خيرا، عساني أعوض عنك بمقدوري عمّا فقدت، أمّا بالنسبة لذلك الحارس المجرم فلقد سلّم مساء أمس إلى السلطة العليا، وأدخل إلى السجن، وبلا شك سيسلّط عليه أشد العقاب.

ثم تقدم السّيد مولر نحو الصبي، وقطع المرحلة التي بينهما في هدوء، ورفع قبعته وقام بوضعها على رأس الصغير وأشار له باتباعه.

لم ير الطفل أمامه من بدّ سوى الذهاب مع ذلك الرجل، فلم يبق له في الحياة إلا هذا الأمل الأخير الذي وفره له القدر من حيث لم يكن يحتسب، كما أنّ صغر سنه لا يسمح له بالعمل ولا حتّى العيش بمفرده. وفي هذه الأثناء ألقى الصبي ببصره على قبري أبويه، وذرف عليهما بعض الدموع، ولحق بالرجل، ولما وصل إلى باب المقبرة رأى أمامها عربة فخمة جميلة في انتظارهما، يقف على بابها رجل أسود يرتدي بزة فضية ثمينة، فتقدم نحوها وصعد بجانب السيّد مولر، وكانت تسوده حالة من الهم لو وضعت فوق الشّمس لغابت، وسمحت للّيل بإرخاء سواده وتعجيل سدوله في غير موعد له من شدّة ثقلها. سارت العربة واتخذت سبيلها وأخذ الصبي يقلّب ذكرياته الجميلة التي قضاها برفقة والدته، ويسترجع تلك القصص التي كانت ترويها له قبل نومه عن بسالة والده وشجاعته وعن كيفية لقائهما، وعن الحذاء الذي جمعهما، وأخيرا عن زواجهما، فيجد لهذه الذكريات في سريرته ألما يقطع أوصاله وكان الرجل بجانبه محيطا ببعض مما هو فيه من كل ذلك الحزن، فيتأسف له تارة ويعطف عليه أخرى، وما هي سوى ساعة حتى وصلوا إلى منزل السيّد، فترجل السائق أولا وفتح الباب لسيّده وللصبيّ، نزل آزاد ولم يكد يبصر قصر السيد مولر حتّى ذهل عن نفسه لحظة، ثم عاد إلى وعيه وراح يجول ببصره في فخامة المنظر الذي يقابله والبناء العجيب الذي يحيط به من كل

جهة، المشهد الذي لم ير مثيلا له في حياته، فهو الذي ترعرع في قرية بسيطة وتربى في كوخ صغير، أما الآن وبعد خسارته لكل شيء فاجأه القدر بحياة جديدة لم يكن ليحلم بها من قبل.

# الفصل الثّانـــــــي

دارت الأيام دورتها وانطوت، ومرّت الأشهر مرورها وانكدرت، واستحالت إلى سنوات خلت تروي في طياتها أوقات شاب يتيم كلها شقاء وحسرة. وبعد انقضاء كل هذه المدة شاب السيّد وساب وشبّ الفتى واشتد وكسب من العلم الوفير ما لم يكسبه أقرانه في ذلك الزمان، واستطاع أن يجوب معظم أوروبا باحثا عن المعرفة بين دور الدّين والكنائس والجامعات والمكتبات. ولقد كان قليل الاختلاف إلى ذلك القصر الذي آواه بعد وفاة والدته ولكن ورغم كل الحزن الذي يسكن صدره، كان شديد الحرص في تعامله مع ذلك الرجل النبيل السيّد "مولر رودوفسكي"، هذا الرجل المحسن الذي مدّ له يد المساعدة وأعطاه من الحب والحنان ما لا يباع ولا يشترى بالأموال، فقد عطف عليه وغمر محيطه مودة وحنانا، وكان يرى فيه اليد التي تساعده والرجل التي يستند عليها والعقل الذي يوّفر عليه عناء التفكير في المستقبل، ولم يخطئ في ظنّه هذا، فبعد انقضاء تلك السنوات ورغم الوقت الضيّق والقصير الذي يقضيه في القصر كان يقوم فيما يقوم على أمور المنجم وكل تجارة السيّد ويحسن إليه ويطيعه في كل شأنه ويوفر له كل مطالبه من دون أي اعتراض أو تقصير، وبدون أي كدّ أو ملل.

بقي آزاد مدة وهو على حالته تلك، يسافر تارة لطلب العلم والاستفادة قدر المستطاع من ذوي الألباب، ويعود أخرى لقصر السيّد للاستطلاع على شؤونه ومساعدته والقيام على أمره، وفي إحدى خرجاته نحو جنوب بروسيا "ألمانيا"، التقى هناك بأحد الكتّاب والمفكّرين يدعى "مايكل شفانخ"، وكان رجلا عظيما حكيما

وعالما يشهد له جميع المثقفين في عصره، فأحسن الأخير ضيافته في بيته وأجاد إكرامه.

وكان منزله يقع جنوب ولاية "بافاريا"، ولم تكن الأخيرة بعيدة عن الحدود الفرنسيّة التي كانت تشهد وقائع دموية بسبب الخلافات السياسيّة بين البلدين، إلا أنّ كل هذا لم يكن لينقص من عزيمة الشّاب ولم يكن ليحّد من طموحه، فكل تلك الأمور السياسّية والخلافات الدوليّة لم تكن لتظفر ولو بالقليل من تفكيره ولا تثير قلقه.

ظلّ الشاب حوالي شهر من الزّمان في منزل المفكّر، وقد تمكن من أن يكسب قسطا ليس بالقليل من خبرته وحنكته، كما استطاع أن يقتطف بعضا من شتّى العلوم التي كان الكاتب يلقيها عليه.

وفي ساعة رحيله قام السيّد مايكل بإهداء الشّاب سلسلة كتب ثمينة ونادرة وقال له: "لا حاجة إليها الآن. هي ملك لك".

تعجب الشّاب لأمره وقال: "هذه هدية أثمن من المال نفسه فلا أظنني أستطيع قبولها منك ياسيدي".

ابتسم الكاتب ابتسامة خفيفة ووضع يده على كتف آزاد وقال له: "صحيح أنّي لم أسألك على حسبك ولا عن نسبك ولا حتّى من أين جئت، فما أعرفه عنك حسب ظنّي هو مجرد اسمك فقط، كما أعلم يا بني أنك طالب علم مجتهد وذو فكر واسع و ذكاء أوسع، وها أنا ذا أشهد بأنك شاب كيس فطن، سريع التّعلم، صعب المنال، إلا أنّه ينقصك الكثير لتتعلّمه، من خفايا الحياة و أسرارها، فلو تعلّمت القليل من الكتب التي قرأتها فاعلم أنّه لا زال

الكثير أمامك لتخوض غماره، ولن تكسب منه شيئا ما لم ترفع الحجاب عن نجدك، وصدّقني، سيتبيّن لك ما لم يزر خاطرك على الإطلاق، فليس لفهم الحياة علاقة بقراءة الكتب يا بنّي.... لا تستغرب، أعلم أنّ هذا هو هدفك ومبتغاك.... فلقد أحطت ببعض مما تغلفه في قلبك.

ابتسم الرّجل من جديد وصمت هنيهة وكأنّه يبحث عن شيء مهمّ يودّ تذكّره، ثم قال للشّاب: "هل سبق يا بني أن أطربت مسامعك بقصة السلطان الرّومي؟"

فأجابه الفتى: "لا. لم أسمع بها من قبل...."

رفع مايكل كفّه عن كتف آزاد وقام بوضعها في جيب سترته وطوى شماله وأدارها خلف ظهره، وأخذ يمشي بخطى بطيئة متساوية، فتبعه الشّاب في سكون من ثم قال: "في يوم من الأيام جاء إلى السّلطان رجل، وكان السلطان أعلم وأحكم واحد في زمانه..... لا يوجد كتاب لم يقرأه... مكتبته لا ينقصها كتاب، وبين الصّفحات رجل فهم الحكمة من الزّمان وقف أمام السلطان وقال له: "أريد أن أتعلّم منك يا مولاي، فأرني أهم وأحسن أربعة كتب عندك".

تردّد السلطان في البداية من ثم أشّر على أربعة كتب أمامه وكان عمر تلك الكتب قرنا من الزّمان، يحبها أكثر من روحه. نظر الرجل إلى الكتب الأربعة التي وضعت أمامه وحملها من ثم ألقاها في بركة كانت على مقربة من السّلطان، من دون أن يرف له جفن. ركض الرّومي لإنقاذها مسرعا كالمجنون، لكن فات الأوان. أتلفت الكتب في المياه، وذهب حبرها واختلط، وانفكّت الأغلفة

وانكمشت. مشى الرّجل نحو السّلطان وأمسك بيده وقال له: "الشيء الذي تبحث عنه ليس في هذه الكتب، الشيء الذي تبحث عنه لا تجده بالقراءة. الشيء الذي ينقصك لا تستطيع أن تكمله بعينيك. الشيء الذي تبحث عنه وإن طفت الدّنيا ومسحت الغبراء مسحا، لن تجده إلا في قلبك. تذكّر هذا جيّدا يا مولاي، هذا الشيء ستجده في داخلك أنت وحدك... وتذكّر أنّ كل الكتب في هذه الحياة وكل الحسابات والذّكاء وكل صفحات الأقوال لا تحتل أبدا هذا المحل ولن تملأ ذلك الفراغ...

ستتعلّم بالقراءة... ولكن ستفهم بالقلب.

وهنا صمت السيّد مايكل فسأله الشّاب: "وما الذي حصل للسلطان بعد هذه الحادثة يا سيّدي؟"

فأجابه: "لم يعش السلطان بعدها كثيرا، فلقد توفي بعد ذلك ببضع سنوات عن عمر يناهز السبعين سنة.. في عام 1373م ودفن السلطان جلال الدّين في "قونية" بالإمبراطورية العثمانية. والإشارة على أنه قد فهم للحياة معناها بعد تلك الحادثة، البيت الشعري الذي أمر أن يكتب على ضريحه بعد وفاته يخاطب فيه زائريه:

يا من تبحث عن مرقدنا بعد شدّ الرحال

قبرنا يا هذا في صدور العارفين من الرجال.

اغرورقت عينا آزاد بالدّموع رغم إرادته، وأحسّ بأنّ السّيد مايكل قد فتح صدره وأطلّ على ما يخفيه في داخله، وربما كان تذكره لوالده من خلال القصة سببا آخر في إثارة أحاسيسه. التفت الرّجل إلى الشّاب وقال له: "قد ألممت ببعض شأنك يا بني

فلا تسألني، قد تستطيع إخفاء الحزن في قلبك والختم عليه، لكن لا يمكنك إغماض عينيك إلى الأبد".

ثمّ رفع رأسه الى السّماء وأكمل..

"أظنّي أطلت عليك بعض الشيئ، انصرف إلى شأنك الآن، وإن أردت نصيحتي، فشقّ طريقك نحو "باريس"، فهي مدينة تشرح فيها الصدور، وتفرغ الأفئدة والقلوب من الضجر و الهموم..... "

ثمّ التفت راجعا إلى منزله وهو يردد: "تذكّر هذا جيدا يا آزاد.. تعلّم بقراءتك وافهم للحياة معناها بقلبك، وقبل وفاتك ستدرك ما تنقش على قبرك أنت الآخر.. ولهذا سلّمتك هذه الكتب الثّمينة في نظرك، لأنني رجل تعلّمت بعقلي، وعشت بقلبي، هذا هو الفرق الوحيد بيننا يا بني."

وقف الشّاب جامدا كالتّمثال في مكانه ساعة من الزّمان وهو يفكّر في تلك الكلمات التي ألقاها إياه ذلك السيّد، ثم انتبه إلى نفسه وما حوله، وكان الرّجل قد غادر المكان، فابتسم ابتسامة متسعة لا يفهمها سواه وانصرف.

شقّ الشّاب طريقه واتخذ سبيله مقررا العودة، لكن هذه المرّة ليس لقصر السيّد، إنّما العودة للحياة، فقد انتبه لأيادي الماضي التي تحتضنه من كل جانب و تشدّه بكل معار الفتل بأعمدة الأحزان والمعاناة، وخلال كل تلك السّنوات التي مضت لم يمرّ عليه يوم وأحسّ فيه بطعم السّعادة، ولم يتجرّع القليل من الغبط ولا الفرح، فمنذ أن فجع بوفاة والدته قام بغلق أبواب قلبه ونوافذ مشاعره، ووهب حياته للعلم والتعلّم بعيدا عن النّاس، إلاّ

أن وقع تلك الكلمات التي أسدلها عليه الكاتب كان لها صدى مدوٍّ في داخله، أحيا ما أماته الحزن من مشاعر وفتح الأبواب التي سدّها البؤس بكل أنواع الصّلب والمعادن.

أنشأ الشّاب في سبيله متخذا الجنوب قبلته هذه المرّة، ولم يمض على سيره بضع ساعات حتّى أقبل على الحدود الفرنسيّة، وبالنسبة للعلاقة التي تجمع البلدين لم تكن مستقرة بعد، واستوقفه جمال أحد الدير كان على مقربة منه، مخصّص للسّيارة والتّجار، فقرّر المكوث فيه بضعة أيام قبل دخوله إلى باريس، عسى أن يعينه السيّد مولر ببعض المال ليكون زاده في سفره والمتاع الذي يقوى به في شدّته، فبعث إليه كتابا في مجمله..

إلى سيّدي ووليّي..

-أنا أحد من أسكنته ظلك، وعلّقته حبلك، وجدوته بلطيف برّك وخاص عنايتك، أنا أحد لا يرغب إلاّ إليك، ولا يعتمد إلاّ عليك، ولا يلبَّى طلبُه إلاّ بك، فيعزّ عليّ يا سيدي ووليي أن ينوب القلم في خدمتك عن القدم، وتسعد برؤيتك كلماتي دون نظراتي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة؟، وعليّ أن أسعى وليس عليّ إدراك النجاح. قد أسكنتني دارك، فقبّلت جدارك، وما بي حبّ الجدران ولكن شغفا بمن سكن الديار، وحين حالت الحوائل عنك، أمليت احتياج الشوق على ضمير القلم معتذرا إلى سيّدي عن تقصير بدر أو فتور ظهر، فإليك أكتب يا من جاد على النفوس بكرمه واسترق الأحرار بجميل صنعه، وأولى النّعم والخيرات، وأسدى المعروف والمبرّات، أرفع كتابا تبعثه إلى مقامك العالي عوامل الحاجة، وتزجيه إلى ساحتك دواعي الشدّة، وآمل أن يكون تذكيرا بحالي وكشفا على أمري، فلقد كان سيّدي قد وعدني أن يرسل إليّ من خيراته ويولّيني من آلائه، ويضاعف لي من مننه ويزيدني من عطائه ما أشدّ به أزري على الزّمان وأطاول به نوائب الحدثان، فقد بارزني الدّهر بسيوفه، ورماني بسهامه، وأناخ عليّ بكلاكله، وقد طال الأمد على حاجتي عند سيّدي فخفت أن تكون هبّت عليها ريح النّسيان، وعصفت بها عاصفة الحدثان فكتبت هذه الرقعة أستعجل بها برّه، وأستدرّ بها ضرع عطائه، علما بأن الخجل يطاوع قلمي بثقله، فعسى أن يكون قد لاح نجم النّجاح، وهبّ نسيم الفلاح، فيرسل إليّ سيّدي من سحاب كرمه ويمطرني من غياث فضله، لترف بذلك غصون آمالي بعد ذبول، وأملي في ذلك فسيح

فإنّ مطلبي مرفوع لأكرم النّاس نسبا وأشرفهم حسبا ومثله جدير بحفظ العهد، وتذكر الوعد، فإن رأى سيّدي أن يخفّف ثقل الحاجة عنّي، ويردّ ما سلبه الدّهر مني بقطرة من بحر عطائه ومنّة من بعض آلائه، ويجبر ما كسره الفقر من جناحي، ويردّ عنّي النوائب التي لا تفتأ تتولاني. عقد لساني عن مدحه ووقف ضميري على شكره فيحرز منّي ذكرا جزيلا، وثناء عظيما، وإن وصلك كتابي في أجله فاعلم أن صبابتي أوشكت على النضوب ومدّخراتي قاربت على الإنتهاء، ولا أحسب سوى أنني مطيل السّفرة هذه المرّة، باحثا فيها عما ينقصني، وما خروجي إلا لإتمامه وها هما ذا القلم والقرطاس بيننا وسيطين، وما شكري إليك سوى واجب منّي وفرض عليّ، وحسبي أن أقول إلى كل ما هو خير قريب يجمعني وإياك... وكفى.

المطيع آزاد شيروان.

بعد قراءة السيّد كتاب الشّاب، وقعت عليه كلماته وقوع النبال في ساحة الحرب، واكتسحت معانيها كيانه اكتساح العاصفة الهوجاء للطبيعة الساكنة، فما كان يظن يوما أن القدر سيمنعه عن آزاد، وكأنه شعر في تلك اللحظة بأن لا لقاء يجمعهما بعد هذا الفراق، وبعد هذه السّفرة. كيف لا يصدم وهو من قام على رعايته وسهر على تربيته واهتمّ لأمره وأحبّه كفلذة كبده طوال تلك الأعوام؟ وبعد إمعان وتفكير مليّ أمر الخدم بأن يصفّفوا عربة ويجهزوها أحسن تجهيز، ويفرشوها بأفضل المفروشات و يملؤوا خزانتها أموالا تكفي صاحبها مدة طويلة، من ثمّ توجه لمكتبه وحمل قلمه وأنشأ يكتب....

ولدي،

-إلى من أبعدتني عنه الدروب، إلى من ذابت به القلوب، سأظلّ أحبك رغم الفراق المكتوب، رغم دمعي عن حبّك لن أتوب. وبعد...

آزاد، طالما كنت قائد حلبتك وسيّد موقفك، وصاحب قرارك تهم إلى سفرة متى أردت، وتطلب العلم أينما شئت وأينما استقررت، بني، أدرك أن العلم شيء بعيد المرام، لا يصاد بالسّهام ولا يقسم كالأرزاق ولا يرى في المنام، ولا يضبط باللّجام، ولا يكتب لضعاف الهمم والعوام ولا يورث عن الآباء والأعمام، وزرع لا يجنى إلّا متى صادف من الحزم ثرى طيبا، ومن التّوفيق مطرا صيّبا ومن الجهد روحا دائما، ومن الصّبر سقيا نافعا، فلكأن تفترش الحصى، وتسند الحجر، وتركب الضجر الخطر، وتدمن السّهر وتصطحب السّفر وتكثر من الفكر والنظر، إلاّ أنّ كل هذا لا يهمني ولا حتّى الشّيء اليسير منه، المهم بالنسبة لي هو ولدي الذي لم

أنجبه، ونعم الولد أنت يا آزاد، فلو كانت سفرتك هذه لطلب العلم لما رضيت الفراق بيننا وسيطا، ففي بعدك عنّي أصبح الموت لي سبيلا، ومن لي غير الموت لفراقك بديلا؟ فقد خالجني إحساس غريب، وبادرني شعور كئيب، وكأنّني لن أراك ثانية، فحزنت لذلك حزنا شديدا، إلا أنّه لا يغني عني الآن بكائي ولا حنيني، ولا يجدي عليّ عويلي و لا أنيني.

فاذهب يا بني أينما شئت واجتهد في نيل مقصدك، وإياك أن تلعب بك أيادي الدّهر فتنقص من عزمك وترمي بإرادتك، فإن يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة، وكم أتمنى أن أكون سماءك وتكون أرضي يا بني، ولا تلم ظروفك على ما أنت فيه من حال لأنني رجل لا يؤمن بالظّروف، فالناجحون في هذه الدّنيا أناس بحثوا عن الظروف التي يريدونها، فإذا لم يجدوها وضعوها بأنفسهم، وكذلك كان أمري و هذا سرّ نجاحي.

اذهب يا آزاد، وأقم ظروفك وابنِ سعادتك، فإن تم لك بناؤك المرصوص فلا تنس هذا الشّيخ الوحيد الذي يشتاق لرؤيتك، وكم يتأسف لغيبتك، ولقد أرسلت إليك اليوم مطلبك وأتممت لك منقصك، فانتقِ الأحسن من تصرفك وأجوده، وهبّ إلى سفرتك وتنخل موضع قدمك تصل إلى مبتغاك، فلا أريد أن يصلني خبر عنك يلهب جوانحي ويذيب لفائف قلبي، ويزعزع نفسي ويملك لبّي ويعبث بيقيني، فلا تدع الدّهر يسجل عليّ في جريدة الشّقاء، فلا عزّ لي بغيابك.

في 12 أفريل 1795، وفي ساعة الزّوال، خرج آزاد من الدّير إلى هضبة مرتفعة في جوار المكان. اعتاد الجلوس فيها والاستئناس بالمنظر الخلاب الذي توفره له خلال الأيام التي قضاها هناك فكانت تشرف على سهول منبسطة خضراء على مدّ البصر، تلتقي آخر الطّول في الأفق مع السّماء الزرقاء المزينة بالسّحب الفضيّة تتخللها خيوط ذهبية تتسلل من الكرة الشّمسية، مضيفة للمنظر رونقها الخاص، وبهاءها المميّز.

وكانت أصناف الطيور تهبّ في جماعات من حين إلى حين معلنة عودتها و رجوعها معمّرة المحلّ لفصل الربيع ولجوّه الدافئ الفريد المفعم بالحياة.

انبسطت روح الشّاب لهذا المنظر وخفق قلبه لتلك اللوحة الإلهية الخلابة، وشفيت جوانبه وانطفأت النّار التي كانت تعتلج في داخله، وبينما هو غارق في تأمله أبصر شيئا صغيرا يتحرّك بين حشائش السّهوب قاصّا طريقه فيها، وعند اتّضاح الرؤية وانكشاف السترة، تمكن من لمح عربة السيّد مولر تتّجه إلى الدّير فهبّ مسرعا كالمجنون من شدّة الفرح، يجري بين الأشجار ويخطّ سبيله تحت الفروع والأغصان حتى بلغها، واستوقف سائقها وكان السائق يعرفه، فحيّاه تحيّة تليق به لمكانته كسيّد ثان للقصر وتوجها معا إلى ذلك الدّير، حيث ألقى فيه نظرة عن محتويات العربة، فإذا هي مصفّفة أتّم التّصفيف ومجهّزة أكمل التجهيز من ثمّ سلّمه الخادم كتاب السيّد، فألقى عليه نظرة في المكان وعند إتمام قراءته ذرف بعض الدّموع وكأنّه أحس بما يحمله له ذلك الرجل النّبيل من محبّة وعطف داخل صدره، ورفع برأسه إلى

السّماء وكأنما يخاطب سيّده أو يسأل الأجواء عما يخفيه له المستقبل، وهو يقول: "أترانا نلتقي ثانية أم أنّ أيامنا قد ذهبت ولن تعود؟ أأرسم سيّدي ووليّي في قلبي ذكرى أبدية أم أدفنها إلى الأبد وأنثر فوقها الورود؟".

ثم تنّهد تنهيدة عميقة أفرغ فيها كل ما تبقّى في داخله من كروب الماضي وذكرياته السيّئة.

في مساء نفس اليوم ركب آزاد شيروان العربة وحمّلها ببعض من أغراضه وكتبه التي كانت معه وانطلق، وكان الخادم قد غادر الدّير عائدا إلى القصر .

لم يمضِ على سيره سوى بضعة فراسخ معدودات حتّى انكشفت لمقلتيه الحدود، وكانت الطّريق مليئة بالحرس، وعلى أطرافها تترامى المدفعيّات وعشرات الجنود، إلا أنه ولحسن حظّه وقبل أسبوع واحد من تاريخ هذا اليوم أبرمت بروسيا ألمانيا وفرنسا معاهدة "بازل"، كما أبرم البلدان من خلالها واتفقا على بعض التسهيلات للشّعبين في تاريخ 5 أفريل 1795، فلم يواجه أي مشكلة تذكر خلال العبور سوى بضعة أسئلة والقليل من التدوينات كانت إجراءات ضروريّة يجب على الطّرفين اتخاذها.

ارتاح الشّابّ في عربته تلك اللّيلة على مقربة من الحدود، وكانت أوّل ليلة له يقضيها في فرنسا هذا البلد الغريب الذي لا يكاد يعرف عنه شيئا. وفي فجر اليوم التّالي، توجّه نحو "باريس" ولم يكن في حوزته سوى خريطة بالية يتّبع هدايتها وخطوطها، فيخطئ في الطريق مرّة ويتوقّف للسؤال مرّات. وظّل كذلك ساعات وساعات بين خطأ في الدّرب وإصابة، حتّى انتهى به المطاف على ضفاف نهر "السّين"، وهو نهر رئيسي في شمال "فرنسا"، وأحد طرق النّقل المائيّة التجارية، كما أنّه مصدر جذب سياحي وبالذّات في مدينة "باريس" التي يمرّ عبرها ويبلغ طوله 776 كلم ويمتدّ لمسافة 29 كلم شمال غرب "ويجون"، ومن هناك يجري في مسار ملتوٍ لحوالي 764 كلم، باتجاه الشّمال الغربي إلى مصبّه بالقرب من مدينة "لوهافر"، وعلى حوالي 378 كلم من منبعه يصبح نهر "السّين" نهرا عريضا، يخترق وسط "باريس".

فذهل آزاد عما رآه لحظة، وتوالى ذهوله عدّة لحظات، فلقد كان يتميّز هذا النّهر بجمال فريد يفضّله ويميّزه عن أي نهر آخر فمشى على ضفته يتأمل الإبداع الربّاني في تصوير طبيعته وكيفيّة إتحافها، إلى أن انتهى به المطاف أمام مدخل جسر "نيوف" وهو جسر قوسيّ يربط بين ضفّتي النّهر .

وكان معلّقا على أعمدة مدخله إعلان بالخط العريض عن فتح مسابقة التّوظيف في مسرح "تياتر-فرانسيز"، كما ذكر في الإعلان عن جائزة تمكّن الخمسة الأوائل من أن يظفروا بتكوين خاص تحضيرا لدخولهم عالم الفّن والمسرح، إضافة إلى مئة فرنك مقدّمة من الحكومة الفرنسيّة، فاغتبط آزاد لقراءته ذلك الإعلان

وفرح به فرحا شديدا وقرّر خوض المسابقة كشاعر ومؤلف مسرحيّات، فلقد كان يملك من الموهبة في الكتابة والإلقاء والأسلوب الرائع في فنّ الخطابة والخيال الواسع، ما يكفيه لزخرفة ألف ألف صفحة وصفحة، كما أنّ موهبته لا تقتصر على الكتابة و الإلقاء فحسب، بل يملك أيضا خمسة ألسن يتحدّث بأيّها شاء وبكل طلاقة وسلاسة، فلا يمكن للسّامع أن يفرّق أصل لسانه من بقيّتها.

ولم يكن المال دافعه ولا المنصب مطمعه، بل كان حبّا للفنّ وفضولا في تجربة شيء جديد لم يطرأ حياته من قبل، وبعد هذا الخبر المثلج الذي روى ظمأ قلقه وأنهى فضول جوارحه، وثبّت يقينه وأرخى سدول الطمأنينة على كيانه، قام الشّاب بصفّ عربته وسط الجسر وارتجل منها، ووجد له عمودا كان على مقربة منه فاتّكأ عليه وأخذ يسبح بناظريه بين أزقة المدينة وشوارعها وراح يراقب سير العشّاق على ضفاف نهر "السّين" وتبادلهم المغازلة، فأثّر فيه ذلك المنظر بعض الشّيء وتمنّى لو كانت له خليلة هو الآخر ليتلاطم معها أمواج العشق ويغوص معها في بحور الهيام. وبينما هو غارق في تأمّله و تفكيره، إذ سمع جلبة آتية من آخر الجسر، يترأسها فارس شاب وسيم يحمل في يده اليمنى بوقا لتفرقة الحشود، ويمسك بالشّمال لجام الجواد، فعلم أنّه يحاول إفساح الطريق لشيء أعظم منه، فاسطف المشاة على قارعتي الطريق في انتظار عبور الفرسان، وبقوا كذلك بضع دقائق حتّى علت لهم وبرزت لأعينهم عربة بيضاء ناصعة، مصنوعة بأجود أنواع الخشب، يجرها أربعة جياد سود ملاح، يتأخرهم سائق

ونادلان، فتذكّر تلك العربة التي أقلّته من أمام المقبرة لقصر السيّد أوّل مرّة، ولا زال يحوم بناظريه هنا وهناك حتى سمع صرخة امرأة دوّت بها أركان الجسر.....

"يا الهي.... إنّها المادام جوزيفين".

فتهلّل الحشد وفرح الجميع وأخذ الكلّ يصيح "جوزيفين.. جوزيفين ".

وقام الرجال برفع قبعاتهم كدلالة للاحترام والتبجيل، وانحنت السيّدات إكراما و تقديرا لمكانتها.

أما آزاد فكان كالتمثال الخشبي بين كل هؤلاء النّاس خاشعا في تلك العربة، شاخصا عسى أن يعرف من تكون هذه السيّدة التي أسرت قلوب كل ذلك الجمع، فاقترب منها أكثر وأكثر حتّى كاد يبلغ نافذتها، وما إن صوّب عينيه ورمى ببصره على النافذة حتى رأى امرأة تبدو عليها مظاهر الرقيّ والثراء، وتجلس بجانبها شابة في مقتبل العمر كانت آية من آيات الحسن ولوحة من لوحات الجمال، وجهها مستدير كأنّه قمر مستنير، خدّاها مكتنزان كأنهما تفاحتان بلون شقائق النعمان، أنفها أقنى كأنّه مرجان، أسنانها لؤلؤ كثيرة اللّمعان، شفتاها من الكرز مخصّبتان، ابتسامتها كالوردة تزهو، وعيناها تحاكيان عيون الغزلان.

بقي الشّاب مصوّبا نظره على العربة حتّى بدأت في الابتعاد والاختفاء رويدا رويدا، وكان غائبا عن نفسه وحاضره كأنما أراد أن يطيل عيش تلك اللحظة، ثمّ انتبه إلى ما حوله بعد حين فإذا بالجسر كما كا ، السيّارة في كلّ مكان ولا أثر للفرسان. لبث قليلا

في محلّه ثمّ ركب عربته واتّخذ سبيله وهو يتغنّى: "وما كلّمتنا ولكنّها فلقة القمر الأبلج".

لم يسر آزاد لمسافة طويلة ولم يبتعد كثيرا عن جسر "نيوف" حتّى صادفه قصر "اللّوفر" العتيق، فبهت واندهش لضخامة ذلك القصر الشامخ، فلم يكن معتادا على رؤية مثل هذه البنايات الباسخة رغم طوافه لمعظم أوروبا، بقي لمدّة طويلة وهو يتجول ببصره صعودا ونزولا، ذهابا وإيابا في محيط القصر، إلى أن أحسّ بقطرات مطر تداعب هامته، ثمّ توالت القطرات حتى استحالت سماء "باريس" وتبدلت وصارت تنضح وتبعش، وتدشّ وتركّ لترسل من جوف سحابها وابلا وسيلا من المياه يدكّ الصفوف ويهدّ الحصون.

وكانت تلك أمطار الرّبيع التي تهزّ المدينة مرّة كل عام، معلنة بذلك انقشاع ضبابة الشتاء ومرسّمة بتوقفها دخول الفصل الزاهر، فاحتمى الشّاب داخل عربته لساعة من الزّمن كانت كفيلة برفع حجاب الغيوم عن وجه السّماء، والسّماح لها بإظهار حسنها و جمالها.

وبعد مدّة اتفق النّيران على تبادل المكانين، فلقد حان للكوكب الأبيض أن يحتل سماء آزاد آذنا للشّمس بالظهور واحتلال ما أظلمه في سماء أخرى وإحياء ما أماته وإنارة ما غشيه.

فقررّ الشّاب أن يبحث عن مكان قريب للمبيت فيه قبل أن يدركه الظلام، ويضطره ذلك إلى المبيت داخل عربته، وبينما هو يتصفّح أوجه البيوت والنوافذ شاقا طريقه بين الأزقة والشوارع ويسأل المارة هنا وهناك، حتى استوقفته لافتة معلقة أعلى أحد المنازل مكتوب عليها "طابق للإيجار مع دفع مسبق"، فأسعده ذلك كثيرا، وشفى روحه ممّا كان يوترها، فتقدّم مسرعا نحو مدخل البيت وقام بطرق الباب مرة و مرتين، ولكن لم يجب على طرقه أحد. وهو كذلك انتبه له أحد المارة كان على مقربة منه، فهمهم عليه بتحيّة قصيرة وقال له: "هل أنت زائر يا سيّدي؟"، فأجابه: "كلاّ. إنما أنا مستأجر، ولقد طرقت الباب وأكثرت ولم يردّ عليّ أحد"، فقال له: "لا أظنها ستفتح لك بهذه الطريقة، فمالكة المنزل هي امرأة عجوز أتت عليها أيادي الدّهر مرة فخطفت لها زوجها وأبناءها، ثمّ توالت عليها الأيادي مرة أخرى لتسلبها صحتها وسمعها، فتعال معي لكي أدلك على شابة تدعى جويس تقوم على شأن هذه العجوز منذ سنوات، فتأتي صباحا لتعدّ لها الأكل وتساعدها في شؤونها وتقف عند حاجتها، من ثمّ تغادر وتغلق الباب من ورائها لتعود في اليوم الذي يليه وهكذا....

ولقد أرادت العجوز بالشّابة خيرا فطلبت منها أن تستأجر الطابق العلويّ وتترشّف أمواله هي وزوجها وابنتهما، وتعين بذلك المبلغ نفسها، إكراما لها على صنيعها وتعويضا على مساعدتها".

تبع آزاد ذلك الرجل ومشيا معا ما يقارب الثلاثة شوارع إلى أن بلغا منزل الشّابة، فقرع الباب، وفتحته طفلة صغيرة لا تتجاوز

السبعة أعوام فخاطبها الرجل مسائلا: "هل أنت ابنة السيّدة جويس يا صغيرتي؟"

فأجابته قائلة "نعم يا سيّدي". وفي هذه الأثناء أطلت والدتها من أعلى الدرج، ونزلت لاستطلاع شأن زائريها فحيتهما تحية لائقة وبعدها قدّم الرجل لها آزاد، وأنبأها بغرضه، ولم يكن بالأمر الصّعب على الإطلاق كما كان يظن، فصحبته بعد أن غيرت ملابسها هي وابنتها الصغيرة إلى منزل العجوز وفتحت له باب المدخل، ودخلت معه، فأعجب بالشّقة واتساعها وفتن بإطلالتها الرائعة على شوارع المدينة الثلاثة.

أما بالنسبة للإيجار فلقد دفع أقساط خمسة أشهر كاملة، فكانت أموال السيّد مولر قد وسعت صناديق عربته ولم يكن بالأمر الذي يعجزه، أو يضعف من حاجته.

(10)

نعم آزاد بالعيش الرغيد في "باريس" لمدة لا تقل عن الشّهر تمكّن خلالها من زيارة أهم معالم المدينة وأشهرها، كما تمكّن من إعداد جو هادئ لطيف داخل تلك الشقّة كما يبتغيه خاطره فكان يقوم باكرا لشراء مقتضياته من خبز "باريسي" فخم وخضر وفواكه البحر المتوسط على اختلاف ألوانها، ويتجوّل في الحدائق وبين الأزقة و الأحياء، أمّا في المساء فلم يكن ليغادر شقته، فقد كرّس النصف الثاني من يومه لطلب العلم ولإعداد نصّ لائق لمسابقة المسرح.

وبين كل هذه الصفحات رجل لا يزال حيّا في الذاكرة، ولا تزال نعمه بارزة للنّاظر ومننه مغروسة في الحاضر، السيّد مولر رودوفسكي وبعد أن استقر الشّاب وتأقلم واختلط مع المجتمع الفرنسي قام بكتابة أوّل رقعة له من "باريس".

إلى سيّدي ووليّي.
15 ماي .1795

عيناي قد ذبلتا تأملا للقائك وقلبي قد دمى شوقا لخيالك، وأنا لغيبتك كعقد ذهبت واسطته وبشاب قد أخذت عزيمته، فإذا غابت شمس السّماء عنّا، فأنّى لشمس الأرض أن تدنو منا؟
فأستسمح سيّدي عن قطعه، لما حال عنه ممّا أنا فيه من مجاذبة الشواغل، ومساورة البلابل....

يا سيّدي الأعلى، وعمادي الأسنى، وحسنة الدّهر الحسنى الذي جلّ قدره وسار مسير الشمس ذكره، يا من أطال الرّب بقاءه، لفضل يعلي مناره، وكرما يحيي آثاره، يا من فرقتنا الفراسخ وجمعنا الحبّ والأدب، وإن فرّقنا النسب، فالأشكال أقارب والآداب أنساب، وليس يضرّ تنائي الأجساد، إذا تقاربت الأرواح.

يا نسيبي في رأيي وعلمي ومذهبي، وإن باعدتنا حتمية الظروف.. أردت أن أقول لسيّدي بأني قد لا زلت أدافع النّفس عمّا يتقاضاني من شكوى أشواقها، وفي الشكوى شفاء ولو كان يسيرا، ومجرد استحضار أثر من لدنك يجعلني أتعلل عن مسافة البين، فكم أرجو أن تتلقى هذه الرقعة المجزية من حضرتك ما عهدت في سيّدي من الطلاقة والبشر، وأن لايضنن عليها بما عودني من

تمهيد العذر، ويصلني من بعدها بأنبائه الطيّبة عائدة عنه بما يكون للقارئ قرّة عين وللخاطر مسرّة.

المطيع آزاد

تياتر – فرانسيز

سحبت الستائر ورفعت الأقلام وجفّت الصحف، وفتح "تياتر-فرانسيز" أبوابه الضخمة لعشرات المتسابقين ومئات المشاهدين وبدأ الحشد في الوفود إلى داخل المسرح في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم، عسى أن يظفروا بمكان يجلسون فيه أو زاوية يتابعون منها، أمّا بالنسبة لآزاد فلقد كان يومه الموعود وساعته المنتظرة منذ ليال طوال.

توجه الشّاب نحو المسرح، وكان أحد البوابين هناك ينظّم المتسابقين، فصفّ بعضهم وقسّم البقية إلى عصب وأفواج ووزّع عليهم بطاقات تحمل أرقاما تسلسلية، من أجل معرفة صاحب الدور ولهداية اللّجنة ومساعدتها في تنخل الفائزين.

ولم تمضِ سوى دقائق بعد تنظيم المتسابقين حتّى نفخ في الصّور إعلانا عن بدء المنافسة، فهدأ الحضور وساد القاعة صمت رهيب، وأسقطت الأنوار على خشبة المسرح، وبدأ المتنافسون في التوافد الواحد تلو الآخر، منهم من لقي استحسان الجمهور وتشجيعه ومنهم من رشق بالخضار ورمي بقارورات الخمور وحضي بسخط الحضور. وكان آزاد يقف في صفّ خلف الستار ينتظر مجيء دوره في قليل من الحيلة وكثير من التوتر

والقلق، وكان يتمنى في تلك اللّحظات لو أصيبت القاعة بنيزك ملتهب يفتك بكل من فيها بما فيهم هو، ويأتي على كل شيء يوتره على أن يعتلي تلك الخشبة النّحساء، فقد تملكه الخوف وسيطر عليه الفزع، وتخيّل نهايته لو لم يعجب الجمهور بأدائه، فتغير لونه واربد واضطرب قلبه وارتعدت أطرافه.

ولا يزال غارقا في تخيلاته، مهموما في مصارعة اضطرابه، وطرد الرعدة عن أطرافه، إذ طرق المشرف مسامعه بصوت خشن صلب وهو ينادي: "الرقم 22 فليتقدم إلى خشبة المسرح"، وكان هذا هو رقمه. تجمد الشّاب في مكانه وتصلّب كعمود خزفي أثري، وكان يناديه صوت خفي من داخله يردّد ويقول: "اهرب... اهرب". فقد كانت تسود كيانه حالة من الخوف والتوتر لم يشعر بها من قبل، لكنه لم يلبث أن استجمع بعض القطع من شجاعته التي بعثرها الاضطراب بين أضلعه، وتمكن من إحالة التوتر إلى إثارة الشيء الذي مكّنه من التحرك ومغادرة تلك الحالة التي كانت تثقل كاهله، فخطّ خطاه نحو المسرح وهو يرددّ ويقول: "لا يا آزاد. لا تفعلها الآن. ليس الوقت المناسب لتخذل فيه نفسك. أنت لم تقرأ عشرات الكتب لأجل هذا ولم تضرب في الأرض لطلب العلم وتقم بمصاحبة اللّيالي الدجناء لتجبن في الأخير. أنت تستطيع بل وأكثر من الاستطاعة إن أردت".

اعتلى الشّاب محلّه من المسرح ودار بمقلتيه في الأرجاء، فرأى النّاس محيطين به من كل جانب واللّجنة تتوسطهم وكانت مكونة من ثلاثة رجال وامرأة كانوا فنانين ومختصين في المجال. بدا له أن كل فرنسا تعرفهم إلا هو، فأدرك بأنه لا مجال هنالك أمامه

للخطأ، ولم يكد يرفع بصره قليلا حتّى قابلته المنصة الشرفية وكانت مخصصة للشرفاء والأثرياء والنبلاء وأصحاب الطبقة البرجوازية وشخصيات المجتمع النافذة فحسب، وتبيّن له من وراء الستار تينك العينان اللّتان أسرتاه في جسر "نيوف"، فأمعن النظر فيهما فإذا هي نفس الشّابة، فاغتبط وتهلل وفرح أشد الفرح، لكن سرعان ما عاوده الارتباك، فقد أدرك بأن إصابته تخول له مقابلتها، أما إذا أخفق فسيذل أمامها وأمام اللّجنة وكل ذلك الملأ من الناس.

طأطأ رأسه قليلا وكان الجمع محتارا في بعض الفضول لما يفعل ذلك الشّاب، وكانت فئة تستهزىء به في صراخ: "لقد نسي النص... إنه خائف..."

فعلت الضحكات والقهقهات أرجاء القاعة، لكنه لم يبال بها واتخذ نفسا عميقا، من ثمّ رفع نظره وصوبه نحو اللّجنة وقال: "آزاد شيروان شاعر ومؤلف مسرحيات، ولعلّي نسيت نصّي، لهذا سأضطر إلى الارتجال".

أعجبت اللّجنة بإقدامه وكان ذلك واضحا من تعبيرات وجوههم، فالارتجال يعني نسبة أكبر من الفشل، واحتمال فتح باب آخر من أبواب الخسارة، أمّا الجمهور فلا زال في استهزائه وتهكمه حتّى وصل أحدهم إلى القول: " فيكتور هيجو عاد من جديد".

ركزّ الشّاب نظره على المنصة الشرفية مخترقا الستائر بنظره وأنشأ يقول: "ما أجمل الكلمة عندما تغادر القلب، وما أحلاها عندما تكون صادقة معبرة عمّا يعتمل فيه من حب وتفاؤل، وأمل تترجمه الحياة الخالدة التي تداعب جدائل أرواحنا الفتية وتحتضن نسيم الصباحات الندية، وهذه الانطلاقة، فإنّي أطرقك أيها السّامع اللّبيب كلمات يرى من ثناياها حساسية قلبي ودفء مشاعري، هذا الدفء المستمد من شروق شمس الشوق، انتشر نورها ليبدّد عنا الظلام جميعا... أجل ما أجملها من لوحة ساحرة يعجز عن تصوير مثيل لها أمهر فنّان وأجد رسام، تخيل معي... كل شيء في هذه اللّوحة رائع روعة الوجود، فخلفية اللوحة خضرة واسعة يمتد مد البصر معانقا الأفق، وملاقيا البعيد، والضوء يبزغ في حنان معاكسا للظلال، والألوان واضحة دافئة كالشّمس، ما أروعه من منظر، منظر الوجود وما أروعها من لحظات، لحظات الشروق، لحظات ميلاد الحياة مرة أخرى..."

ثم التفت نحو الجمهور وهو يقول: "هل أحسستم الآن بدفء مشاعركم؟"

فأجاب الجميع بصوت واحد يملؤه الإعجاب: "نعم".

فعلم أنه قد نال الاستحسان، ولم يزل أمامه سوى اجتياز الامتحان.

من ثم قال: "إنها لحظات نادرة مع أنها تتكرر علينا كل يوم، إلا أن ندرتها تكمن في إعلانها للميلاد الجديد وتزكيتها للحياة المختلفة، فكل صباح يختلف عن سابقه وسيختلف عن لاحقه

تشرق الشمس لتنشر نور الأمل وتقضي على ظلام اليأس في النفوس، تشرق الشمس وتدعونا بدفئها للعمل، للشوق، للحب للبذل، للوفاء، ولتغمرنا بأمل الحياة، فالأمل هو الحياة".

وفي هذه اللّحظات انفجرت القاعة بالتهليل والتصفيق للشّاب وأشار إليهم أحد أعضاء اللّجنة بالسكوت فعم الهدوء، من ثم توجه لهم آزاد بالسؤال وقال: "هنيئا لكم يا معشر "باريس" أشرقت الشمس على يومكم هذا في "تياتر-فرانسيز"، وكان الكل خاشعا مترقبا ومتلهفا لما سيقول....

-فهل تريدون لها أن تحتل بهو مسرحكم؟؟".

علت الهتافات والنداءات وكان الكل يردد "نعم.... نعم.... نعم".

(11)

بعد مرور ساعة ليست ككل الساعات أتم آزاد عرضه وأنهى إلقاءه لمجموعة من القصائد التي سهر على تجويدها وضبط شوائبها في الأشهر القليلة الماضية والتي حملت عنوان "الحياة أمل"، فأحسن الإلقاء وأجاد التصوير، كأنما رسم لوحة فنية بلسانه داخل نفوس الحاضرين، وكان راضيا عن نفسه أيما رضا ليس لأن الحظ كان حليفه هذه المرة، بل مجرد رؤية تلك الابتسامة الآسرة المنبعثة كخيوط الشمس من خلف ستائر المنصة الشرفية الشفافة، مجرد هذا كان كفيلا بأن ينسيه الجائزة والمنافسة على حد سواء، فلم يخطئ من وصف طائفة الفنانين برقة المشاعر وحساسيتها، وكان الشاب مدركا لهذه

الحقيقة متيقنا بأن تعلقه بتلك الشابة ليس محض إعجاب، إنما كان مستعدا لفعل المستحيل من أجل أن يكسب حظوتها ويحرك شرايين قلبها نبضا رقيقا يهتف باسمه.

غادر الشاب منصّة الإلقاء ودخل قاعة صغيرة في الجوار كانت مخصّصة لينتظر فيها المتسابقون الإعلان عن النتائج بعد الاستفتاء المطروح، وكان مجمل المتسابقين لا يقل ولا يزيد عن العشرين، كلهم متأملون وينتظرون، فتجد فيهم من يدعو ربّه ومنهم من اتخذ له صدر القاعة ليمشي فيه مجيئا وذهابا، ومن يبكي ومن ينوح، وتجد في من تجد ظل شاب منفرد في زاوية من الزوايا يطل من نافذة القاعة على الشارع الرئيسي، المليء هو الآخر بالعامة والفضوليين، وكانوا في انتظار الإعلان عن النتائج لبدء الاحتفال، فباريس هي مدينة معروفة بالثقافة والفنّ الشامخ بكل اختصاصاته على مرّ العصور، ومرة كل عام، وفي مثل هذه المسابقات يقيم السكان المحليون احتفالا ضخما لتكريم الفائزين، فيشربون الخمور ويتراشقون بالفواكه ويتبادلون العطور، سيرا في درب الفرح، ليشقوا طريقهم بين أقواس من الدوالي المورقة، في عالم تتشكل العناقيد فيه قناديل خضراء ترسم لك خطوات النور الهادي إلى السرور .

وبين كل هذا وذاك كان آزاد لا يزال شاغلا محلّه من النافذة ولم يكن ليتوتر بعد خروجه تلك الخرجة المشرفة، فقد تملكه إحساس غريب وكأنما صار بطلا من الأبطال أو ملكا من الملوك يتوسط رعاياه، والكل يهتف باسمه ويمجد إنجازه ويثني على شخصه.

بعد لحظات ولحظات طرق باب المتسابقين مشرف وأنبأهم أن إعلان النتائج سيكون بعد دقائق فقط، فساد في الأرجاء صمت رهيب وخيّم عليها سكون مخيف، فلا تسمع سوى دقات القلوب وجريان الدماء في العروق وزفرات التوتر وآهات التمني والترجي، واصطف الجمع على خشبة المسرح، ليقوم أحد أفراد اللّجنة بفتح ملف صغير بين يديه، ومرّر عينيه عليه وقال: "سيّداتي سادتي، أيها الحضور الكريم الفائزون في مسابقة "تياتر-فرانسيز" هم خمسة متشاركين، وسيتسنى لهم الظفر بوظيفة دائمة في مسارح "باريس"، كما تمكنهم هذه التأشيرة من الدخول إلى عالم الفّن والإبداع من أوسع أبوابه ومن أشرف مداخله، ناهيكم عن مئة فرنك لكل فائز تهدى له كجائزة نقدية من الحكومة الفرنسية كما ذكرنا من قبل.

"أما بعد... وقبل أن أذكر أسماء الفائزين، اسمحوا لي من فضلكم أن أقوم بتعطير لساني المتواضع، وذلك بشكر سيّدة فرنسا الأولى والمؤيدة الوفيّة للفن عموما وللمسرح على وجه التخصيص، فلنحيِّ وإياكم السيّدة جوزيفين دي بوهارنيه وابنتها التي شرفتنا بحضورها هي الأخرى في هذا اليوم المحتسب السعيد، الآنسة أوجين"، فحياهما الجميع، بسعة صدر لأنّ شعبيتهما الحسنة بين النّاس وأخلاقهما الراقية سمحتا لهما بأسر قلوب السكان، وبين الكلمات فهم آزاد بعض الخفايا التي كانت غامضة له، وعرف اسم معجبته، كما عرف أنها ابنة السيّدة جوزيفين المشهورة، فانحنى هو الآخر وحياهما بدوره، وكانت عيناه تكادان لا تفارقان تلك المنصّة.

بعد هنيهة وتقديم وقف كل الحضور بمن فيهم لجنة التحكيم، استعدادا لذكر الأسماء، وشقّ المشرف طريقه بين صفوف المتسابقين وقال: "الفائز الأوّل في هذه المسابقة بجدارة واستحقاق شاعر الأمل ومؤلف المسرحيات آزاد شيروان".

(12)

تمكن آزاد من أن يستفيق من غشية دامت ثلاث ساعات متواصلة، فلم يكد يسمع اسمه حتّى صعق صعقة كادت تودي بحياته وتأخذ بلبه من شدّة الفرح، فلم يكن يتوقع أن يكون أوّل الفائزين بالمسابقة نظرا لكثرة العروض التي قدمت ولوفرة الألسن التي بلبلة، أخذ في تقليب مقلتيه على كل ما حوله هنا وهناك، وبقي مذهولا عن حاله حتى استوقف بصره شاب وسيم مفتول العضلات، يرتدي بزة عسكرية مزركشة يقف على مقربة منه، أمعن النظر فيه، فإذا به نفس الفارس الذي كان يتقدم عربة السيّدة جوزيفين وابنتها على جسر نيوف وتقف بجانبه الآنسة أوجين فاستحى أمامها بعض الشيء واستخزى منظره ذاك الداعي للتهكم، فتحامل على نفسه وجر جسده إلى كرسي في الجوار واتخذه مجلسا له، وكان الكل ينظر إليه في تعجب، مما زاد في توتره وارتباكه، وبينما هم على تلك الحال قام أحد الحكام بجلب حقيبة جلدية مغلفة كانت تحوي الجائزة الخاصة به تقدم نحوه وسلمه إياها،فهلّل وصفق له من بقي في القاعة من حضور واغتبط هو بذلك المشهد الرائع الذي لم يعش مثله من قبل أشدّ الاغتباط والسرور. وهم منهمكون في تكريم الشّاب و تبادل أطراف

الحديث إذ نادى مناد: "بدأ الحفل، بدأ الحفل"، وكان المسرح قد نضب من النّاس حينها، فلا تجد فيه سوى الحكام وآزاد وأوجين وذلك الفارس وعصبة من المشرفين، فهمّ الجميع بالمغادرة إلا الشّاب فقد كان مطأطَأ الرأس يعالج تلك الحقيبة التي بين يديه مشغولا بما فيها، وهو كذلك حتّى شعر بصوت بغيم يداعب جدائل مسامعه، رفع رأسه ليفاجأ بأوجين واقفة بين يديه، ففتل لسانه وأبى فمه الانفتاح واحمر لون وجهه من شدّة الخجل وخانته أحرف كلماته، ابتسمت الشابة لأنها أحاطت بقليل ممّا ألم به من توتر وقالت له في استحياء: "لم أرد أن أبرح مكاني وأبيت المغادرة مع والدتي، فلقد ارتأيت بأني ظالمة لنفسي ومقصرة في حق ضميري إن لم أجزك نصيبك من الثناء والشكر الجزيل على ما قدمته من وصف جليل وشعر موزون على تلك الخشبة فمنذ سنوات طوال وأنا أختلف إلى مثل هذه المحافل والمسابقات إلا أني لم أوفق في سماع شخص مثلك ولا شعر أشبه بشعرك ولن أبالغ إن قلت بأنك قد أجلست بكلامك الأبصار العليلة وأشحذت بمواعظك الأذهان الكليلة، ونبّهت القلوب من رقدتها ونقلتها عن سوء عادتها، فشفيت من داء القسوة، وغباوة الغفلة وداويت من العيّ الفاضح، ونهجت لنا الطريق الواضح وأشرقت شمسا من غير شمس، ودفأت مشاعرا من غير موقد، وغرست أملا من غير عمل، فأنت كالخطيب الذي لا تناله حبسة، ولا تتمشّى في خطابه رثة، ولا تأتي بيانه عجمة، ولا تعترض لسانه عقدة، جواهر نفثاتك فلاح، وعرائس أفكارك صباح، تزيّنت بدرر ألفاظك حيطان المسرح، لا عيب فيك، شاب ينثر لسانه اللؤلؤ

المكنون، أنت الشاعر الذي إشخصه بآيات أبياته الزاجرة عيون الحضور، أنت الواصف الشّاب الذي تلاعبت بالعقول معانيه ويمكن أن يصاغ المرجان والدّرّ من لفظ فيه، أنت الواصف الذي اهتزّ لك "تياتر-فرانسيز" وقدت إلينا نفحات الأمل متتابعة إلى آذاننا، آخذا بعضها برقاب بعض".

في هذه الأثناء سكتت أوجين وقامت بإخراج بطاقة من محفظتها، سلمته إياها وقالت: "أرجو أن تزورنا في القريب العاجل وستجد في هذه البطاقة عنواني وأماكن تواجدي، فلا تبخل علينا بزيارة نعالج فيها من الشعر والنثر ما يطير الألباب ويصون الفؤاد وستجدني عندك صديقة ووصية".

.....ثم صمتت قليلا وأكملت:

"وذلك حبيبي القائد موريس سيقلك إلى منزلك الآن".

صدم آزاد لسماع ذلك وأحس بثقل في قلبه، رفع رأسه متثاقلا فأبصر نفس ذلك الفارس يقف بالقرب من المدخل فرسم ابتسامة زائفة على وجهه، متظاهرا بها أمام القائد، مخفيا من ورائها عويله وشقاءه وعسر الفرقة وعظيم الحرقة.

غادر محلّه مصفرّ الوجه مبعثر الخطى، وهو يقول في نفسه كلمات ماضية كالبيوض يعزي بها خاطره: "مع أن البعد قليل إلا أن الوجد كثير، قد انحنيت بجسم ناحل، وصرت من صبري على مراحل... ذبحتني بكلامها، وفرقت جميع أملي وصبري واستصحبت معها فريقا من قلبي، لست معولا الآن سوى على العويل لكنه لا يغني، ولا أستنصر بغير الوجد لو كان يجدي، فلولا حصانة الأجل لخرجت روحي على عجل، قالت حبيبي فتفرّق عني شمل أنس

منتظم، وتمكن منّي برح عشق مضطرم، قطعت أملي والنزاع في قرن وقد صرت من اليوم حليف وحش رغم الغرام....."

# الفصل الثّـــــالث

(13)

زحف نابليون بجيشه نحو الرّيفييرا حتى بلغ مدينة "نيس" وكان جيشه لا يزيد عن أربعين ألفا من الجنود، وحشدت النّمسا وبعض المقاطعات الإيطالية جيشا كان يربو على ضعف عدد جيش نابليون إلا أنّه كان يعلم بأن جيش أعدائه يفتقر إلى الرّوح المعنوية، لأن جنوده لم يكونوا يحاربون دفاعا عن أوطانهم أو تحقيقا لهدف سام، بل كانوا مسخّرين لاحتلال أراض أجنبية عنهم وللقضاء على مبادئ الثورة الفرنسية التي أصبحت معروفة لجميع الأوروبيين والتي تدعو إلى العدالة والحرّية والمساواة والإخاء، وهي مبادئ تحلم بها الأغلبية العظمى من الشعوب. نجح نابليون في جعل جنوده يتلهّفون للقتال، وشرع في بناء تحصينات لكي ينصب فيها الجنود مدافعهم، كما تمكّن من استمالة جيوش بعض المقاطعات الإيطالية التي كانت خاضعة للنّمسا وبروسيا (ألمانيا) ومتأثرة بدعايتهما، وما كان ليتحقّق ذلك لو لم يكن يتقن الحرب النفسيّة ويؤمن بجدوى الدعاية والإعلام، لذلك كان يصحب معه في غزواته عددا من آلات الطباعة ليطبع عليها آلاف المنشورات ويوزعها على جنود وشعوب البلدان التي يغزوها، فكان يكتب بنفسه هذه المنشورات، وكان أسلوبه سهلا سلسا، يخاطب به قلوب النّاس قبل عقولهم، كما كان يصطحب معه في كل غزوة عددا من المترجمين، وقد فعل ذلك حينما غزى "مصر"، فكان برفقته عدد من المستشرقين الذين يتقنون اللغة العربية، وكانت منشوراته وهو في شمال إيطاليا باللغات "الفرنسية، والإيطالية والألمانية"، مما جعل فئة كبيرة من جنود الأعداء تطلع على هذه

المنشورات لتؤثّر أيّما تأثير في نفسيّاتهم، وبعد أن علم خطة تشكيل جيش الأعداء واستراتجيتهم الحربية تمكن من القضاء عليهم بعد معركة دامية وطاحنة، قضت فيها خطته الاعتماد على حركة "الكماشة" الشّهيرة كما يسميها الحربيون.

في 17 أكتوبر 1797 وقّعت "بلجيكا وألمانيا والنمسا وإيطاليا" على معاهدة (كامبو-فورميو)، ووقع ما كانت تخشاه دول تلك المنطقة. بدأ نابليون في الإعلان عن الجمهوريات فأعلن جمهورية "بتافيا"، كما أعلن عن جمهورية "روما" وبعدهما جمهورية "هلفسيا".

إلا أن كل هذه الانتصارات لم يرض عنها البابا (بيوس السادس)، فالكنيسة في "روما" كان يهمّها الإبقاء على الأنظمة الملكية في أوروبا نظرا لما كانت تتلقّاه من الملوك والأباطرة والإقطاعيين من أموال ضخمة وهدايا نفيسة لكي يحظوا بمباركتها، فاضطرّ نابليون على إثر هذا إلى الزّحف نحو "روما" فلم يلق سوى مقاومة بسيطة تخلص منها بسهولة وقام بأسر البابا (بيوس السادس).

بعد كل تلك الأهوال لم يطق نابليون صبرا على بعد زوجته جوزيفين فبعث إليها كتابا يطلب فيه منها اللّحاق به إلى "إيطاليا" هي وابنتها أوجين، وكان قد مضى على لقاء الأخيرة بآزاد سنتان اثنتان عالجا فيهما من الأحداث ما لا يعدّ ولا يحصى، وخاضا فيهما من غمار الأنباء الكثير، فسبحا في الأحلام الوافرة، وتشيّما بالأخلاق الطاهرة، لا يجهلان بعد علم ولا يسفهان بعد حلم،

اجتمعا على اللسان الفطن والقول الصادق، فازدادا من البعيد قربا ومن القريب ودا.

وفي صباح "جمعة" استيقظت أوجين ولم تكد تنام ساعة واحدة من شدّة الفرح، وكيف لا تفرح؟ وهي منشِئة في سفرة إلى أحد أعرق قصور "إيطاليا" لتسكن فيه ولتنعم هناك بشتّى النعم والشهوات ممّا تبتغي النّفس، من إستبرق وحرير وفضة ونبيذ، ناهيك عن الخدم والولدان الذين يطوفون القصر على الدوام ساهرين على إحسان أسيادهم وحسن خدمتهم فتجدهم في كل مكان، دون ملل أو خذلان، تكاد تقول لهم كن فيكون.

إلا أنها وبين الصفحات لم تكن لتنسى ذلك الشّاب الذي رافقها طوال تلك المدة، فكان لها الأخ الحنون والصديق المجنون والقريب المنون والساعي الصدوق، فأتمّت ما تبقى لها من تجهيزات، من ثم أمرت سائق العربة أن يقلّها إلى منزل آزاد في الضاحية الخامسة من "باريس" لتقوم بتوديعه وتشكره على حسن مرافقته وجود صنيعه، لكنها فوجئت بعدم تواجده هناك عند وصولها فاستقبلتها جويس القائمة على المنزل، وأنبأتها بأنه جاء قبل يومين ثلاثة رجال لزيارة الشاب وغادر معهم المكان وإلى الآن لم يرجع إلى المنزل، اضطربت أوجين لسماعها ذلك الخبر المريب، إلا أنّ جويس هدّأت من توترها وأكدت لها بأنهم مجرد شركاء في العمل لا غير، لأن آزاد كان قد احتل منصبه في مسرح "باريس" للفنون، منذ فوزه في المسابقة وطبيعة عمله توجب عليه مقابلة العديد من الفنانين وروّاد المسارح، ومرة على مرة كان يرغم على الغياب لأيام.

تمكنت جويس من شفاء روح الشابة عما رابها وطرد الغلة التي كانت تخطر بداخلها، لتستأذن أوجين بعد أن تركت عنوانها الجديد فوق مكتب الشّاب ليعلم مكانها حين يرجع، وفي ساعة رحيلها قامت جويس بإمساك يدها وأطرقت واجمة وكأنها تحاول تذكر شيء ما، وبعد لحظة قامت برفع رأسها مبتسمة تعلو ملامحها البهجة وقالت: "لقد تذكرت الآن، أجل، لقد تذكرت".

وتوجهت إلى رفّ صغير في الردهة وجاءت ومعها كتيب صغير وقالت: "تفضلي يا سيّدتي هذا الكتيب، هو لآزاد، وقبل رحيله طلب مني أن أبحث عنك وأسلّمه لك ولكني نسيت أمره تماما فلولا قدومك اليوم لكان هبّت عليه ريح النسيان وهو في ذلك المكان..."

تسلمت أوجين ذلك الكتيب وقلّبته بين كفّيها فاحصة، لكن لم يبدُ لها بالأمر المهمّ، من ثمّ قامت بوضعه في حقيبتها وودعت جويس لتنصرف مهرولة في أمل الوصول إلى الحدود الإيطالية على الأقل قبل غروب الشّمس هي ووالدتها (جوزيفين).

(14)

بعد انقضاء أربعة أشهر، كانت أوجين فرحة مغتبطة بالحياة الجديدة التي تعيش ثناياها وتقلب في طياتها أطرافها وتشبع شهوتها وتوفّر مطلبها، فلقد كان زوج والدتها نابليون بونابارت في أوج مجده، و صار اسمه يتردّد على كل لسان، وخبر انتصاراته عمّ البلدان فطاب له المقام في "إيطاليا" بين أحضان عائلته، وثناء زواره.

إلاّ أن تلك الفخفخة وذلك الرخاء ما كان ليدوم، فكل ذلك مجرد غفلة من الدّهر سرعان ما يحولها الزمان إلى مصيبة مفجعة وهذه هي سنة الحياة، وكذلك كان الأمر. استيقظت أوجين في ليلة من الليالي الحالكة، المدلهمة، العاصفة، على وقع زخات المطر وتقاذف الفروع لطيات الرياح، وكانت منقبضة الصّدر كثيرة الضجر ، لم تكن تدري ماذا تفعل أو تصنع، فقامت من متكئها، وأخذت بالطواف في صدر غرفتها، عساها تنضب جنبيها من بعض ممّا يعتلج فيهما، وهي كذلك حتّى وقع بصرها على غلاف أسود اللّون تحت خزانتها، انحنت لإخراجه في فضول وكانت تعلوه طبقة رقيقة من الغبار، لطول المدّة التي بقي فيها منسيا هناك جلست على كرسيّ مكتبها وقامت بفتح ذلك الكتيب الذي بين يديها فقرأت اسم (آزاد شيروان-مذكراتي) في أول صفحاته، حينها فقط تذكرت ذلك اليوم الذي أعطته لها جويس فابتسمت في نوع من الشوق والحنين لتلك الحياة الساذجة البريئة، وراحت تقرأ الأسطر بصوت خافت كي لا ينتبه إليها أحد، كما لا يخفى بأنها

كانت من أشدّ المعجبين بأسلوب الشّاب في الكتابة أو في الوصف والإلقاء.

هبّت رياح تلك الأسطر بما لا تشتهي السفن، وأقبلت أيادي الدّهر حاملة بيوضا، تتقاطر أغمادها بنعم البشر، فهذا مال فلان وهذه صحة علان وتلك روح آخر، جاء الخبر الذي تستاء له المسامع وترتج منه الأضلع، خبر يهدّ الرواسي، ويقلق الحجر القاسي، خبر يشيب الوليد، ويذيب الحديد ويطيش العقول ويهد النفوس.. في تلك الأثناء أتمت الشّابة قراءة آخر كلمة من ذلك الكتيب الصغير الذي يحمل بين صفحاته الكثير من اللّواعج وما لا يحصى من النوائب، بقيت جالسة على ذلك الكرسي مذهولة عن الدّنيا وما فيها، فتراها تبكي تارة وتئن أخرى، وظلت على حالها البائس ساعة حتّى بدأت في إدراك البعض من وعيها والعودة إلى رشدها، فتركت مجلسها وحملت ما تيسر لها من الأمتعة وأخذت تركض وتبكي نحو وجهة لا يعلمها إلاّ الله.

تمكنت أوجيندي بوهارنيه من الوصول إلى "باريس" في مساء اليوم التّالي وتوجهت مباشرة إلى منزل آزاد شيروان، وكانت في حالة بالية يرثى لها، فيرتسم في مخيلة الناظر إليها أنها شابة مجنونة تركض فزعا من شيء لا يراه سواها، أو أنها متسولة تجري في غير انتظام وراء لقمة العيش جريان الجدول في مجراه، ظلت تركض مرة و تهرول مرات إلى أن بلغت مدخل المنزل، فرأت أمامه شيخا طاعنا في السّن غريبا عن المنطقة لم تره من قبل، كان يجلس في كرسي أمام الباب وتقف على مقربة منه السيّدة جويس في حالة بالية تبكي وتندب. فوجئت الشابة برؤيتها لذلك المنظر وظلت تمشي في ارتجاف حتّى بلغت ذلك الشيخ، فرفع رأسه ونظر إليها نظرة جافة خالية من المشاعر مجردة من الرّوح، وقالت له: "هل لي أن أسألك عن آزاد؟ هل سمعت بهذا الاسم من قبل يا سيّدي؟؟"

في هذه الأثناء ذرف ذلك الشيخ بعض الدموع، وكانت جويس قد غادرت محلّها ودخلت إلى المنزل، وقال: "أوجين... أنت هي أوجين". احتارت الشّابة لدى سماع اسمها وراحت بذاكرتها كل المذاهب وقطعت بها كل المراحل، وشقت بها كل الدروب، إلا أنها لم تذكر معرفتها لهذا الشيخ في يوم من الأيام، وأكمل يقول: "لا عجب أن يختارك آزاد، فأنت شابة قد كمل من الجمال نصيبها وبان النبل على ملامحها، لكن لست أدري لم قام بكل هذا من أجلك.".

وهنا قامت الشابة بمقاطعة حديثه وصرخت فيه صرخة دوت بها أركان الحي، وأخذت تعاتبه في تعجب يملؤه اليأس وتقول: "أنّى لك أيها العجوز أن تعرف آزاد؟ من أين تعرفني؟ من تكون؟"، وهنا

ضعفت عزيمتها وتخاذلت أركانها وارتعدت أطرافها وارتجفت، فقام الشيخ من مجلسه ووضع يده على كتفها بنوع من الحنان والرفق وهمس في أذنها بصوت خشن يغلب عليه الحزن "أنا اسمي مولر رودوفسكي و آزاد يكون ابني الوحيد."

صعقت أوجين عند سماع ذلك الخبر، لكنها لم تحرك ساكنا وظلت واجمة في مكانها، تتفحص ملامح الشيخ وكأنما تبحث فيه عن شخص آخر، من ثم أخرج رسالة مطوية من جيبه وقام بتقبيلها قبلة دافئة وسلمها للشّابة وقال: "هذه أمانته الأخيرة إليك، وستجدين خياله في تلك الرقعة التي بين يديك يا صغيرتي" وغادر محلّه متضعضعا خائر القوى.

ظلت أوجين بين ذهول واستغراق فترة ولم تكد تنتبه إلى نفسها حتّى سارعت في فتح تلك الرسالة، وأخذت تقرأ كلماتها التي تثني الحديد وتمحق الصلب ويندى لها الجبين، كلمات من ذلك الشاب الطاهر إلى الفتاة العذراء، كلمات يبكي لها القلب قبل العقل وكانت الشابة ترتل الأسطر ترتيلا وتصرخ صراخا شديدا، وتبكي بحرقة بكاء لا يبكيه أي إنسان، فتكاد تنفطر السماء لها دهشة وترتج لها الأرض وحشة، بل وتخر الجبال، وتنفك الآمال حسرة ووجدا ولهفا. ولم تكد تقرأ آخر الكلمات حتّى خرّت مغشيا عليها في رصيف الشارع وراحت في غشية طويلة وعبرات تأتي على أنفاسها المتقطعة.

فآه منك يا دنيا على ما تخفين بين أضلعك وما تحملين في طياتك، فكم أبكيت العيون، وأبلغت من النّاس حدّ الجنون، كم ثكّلت من أم، ويتمت من ولدان، كم سلبت من نعم وغلمان، كم

أعجزت من الرجال وكم أشقيت من النساء، من ثمّ تخاطبين النّاس وتقولين بكل برودة: "وما عمدت الأقدار إلى استنزاف مدمع ولا أرادت الأيام إيلام موجع، إنما هي سنة الخلق، كون يليه زوال وعقد يسبقه انحلال، وإنّ لكل شيء أجلا موقوتا".

# مذکرات آزاد

# روضة السنديان

اليوم هو يوم فرح حلو جميل، يدعوني لأسطّر بقلمي ما يمليه الخيال، أصف فيه محاسن ذلك المكان، المشهور بـ "روضة السنديان".

هناك ترى البحيرة كالمرآة تمثل فيها السحاب، فكأنما الماء سحاب والسحاب ماء، فتخال شاطئها ملجأ للحسناوات الآنسات أو سوق جمال تباع فيه القلوب على الغانيات.

هناك الشبيبة واللّعب، والزّهو والطرب وقد اعتلّ الصّبا وصحّ الغنا، حور وولدان يمرحون بنشاط الشباب، ويتهادون بنشوة الشوق و الإعجاب.

وهناك أوجين تنير ظلمات صدري بثغرها الباسم الوضّاح تجلس تحت شجر "السنديان"، تبدو أميرة من الأميرات أو حورية من الحوريات أو ملاكا حسن المظهر يبارك الحضور من علياء....

وهناك أنا بجانب الحبيبة أصنع لها تاجا من أنسجة الأفنان وأوراق "السنديان" كما تشتهي البنان.

هناك نغمات الأوتار تدعو إلى اغتنام الأوقات، تهدي الارتياح إلى الأرواح وتبدل الأتراح إلى أفراح.....

هناك الكؤوس على نغمة الهيام تحوم، فتهم برشفها الثغور لتنير ظلام النفوس وتشرق شمس الحنان لتغرب في أفواه الندمان، فيعلو الوجوه الشّفق، فتبارك الربّ فيما خلق.

هناك فريق من أهل الهوى، حلفاء الأسى والجوى، يختلسون النظرات ومن تحتها سهام صائبات، تقصد قلوبهم ولا راحم لهم

ينادون من يحبون فلا يجابون، يتمنون الرضا بعد الهجر، وحلو اللقاء بعد الصبر، وفريق آخر قد وافاهم السعد فنالوا الأماني تعلو وجوههم نضرة النعيم بما نالوا من قبول أو تسليم.

هناك يتبادلون التحيات بالحواجب ويضعون الأيدي فوق الترائب، حتّى إذا اللّيل سجى وسترهم رداء من الدجى، يتلاقون إلى جانب اليم، ويتهامسون والفم قريب من الفم، تراهم على الأرائك جنبا بجنب، وعنقا على كتف،مبتعدين عن العيون هنا وهنا، وقد بلغوا المآرب والمنى.

هناك كان أوّل لقائي معها وبداية عهدي بها، ملساء الشعر فلقة القمر، مخجلة النيرين، شاغلة الملوين، خليلة القلب مضيئة الجنان، حبيبتي أوجين يا تاج السنديان.

# كم أهوى قربها

في ساعة من ساعات هذا اليوم تمكنت من اقتطاف بضع دقائق من وقت أوجين، وكم شفى كربي لقاؤها وأطفأ لواعج صدري وطرد همّي وأيقن وهمي وأبعد غمّي سماعها، كيف لا..؟ وقد أبصرت مقلتاي أجمل الخلائق، وأطربت مسامعي بأرقّ نبرة في الوجود، ولامس كفّي أنعم الأكف، فآه...، لو تدري الكم الذي يحمله هذا الصدر بين أضلع قفصه من حب، وودّ، ومشاعر نحوها، لتركت ما بيدها وهمّت بي، وضحت بكل ما تكسب لأجل هذا الحب.

لكن وللأسف الشديد، قلب أوجين ينبض لشخص غيري ولا أظنه سيشفق على حالتي المذلة هذه أو يحسّ بها، و لن يخفق لي ولو خفقة واحدة يكفيني العيش بها لبقية صفحات حياتي.

فسجّل يا قلمي ما مرّ به سيدك ودع التاريخ يشهد معك، عن ضمير اندمج على يسر اعتقاده درها، وتبلج في أفق وداده بدرها وسال على صفحات ثنائه مسكها....

فكفاني أن أرى ذلك الثغر الباسم، وتينك العينين، وأقلب فيهما بصري، حتى وإن لم أظفر بها كخليلة، فلقد زادني جمالها إيمانا بقدرة الخالق في إبداع بشره، وهذا أيسر شيء أصبّر به نفسي وأقدر به على مبارزة بيوض الحبّ الغادرة المغروسة في هذا القلب الممتلئ بنفحات ذكرك... يا حبيبتي يا أوجين.

# أكتب لك

أكتب لك ولعذوبة روحك وخلجات همسك، أكتب إلى قلبك الصافي، إلى عينيك المتسعتين، أكتب لك لتعلمي يا حبيبتي كم أهواك، وكم تسعدني لقياك، أحبك هي أربعة حروف ولكن في قاموسي تعني الكثير.....

حرف الألف... أنت حياتي وبدونك لا حياة، أحببتك من كل نبضة في قلبي، عشقتك وهمت بك يا حبا طول حياتي، فكم أنت رائعة يا حبيبتي، رائعة أنت في صمتك، همسك، كلامك، رائعة أنت وستبقين كما أنت حبيبتي ونور حياتي.

حرف الحاء... حياتي من دونك خراب، لأنك قد اعتليت الجزء الأكبر من تفكيري وأتيت بخلجاتك الداعية للوصف على حبر قلمي، بدونك لن أعرف لي بداية ولا نهاية، لأنك أنت من ينير دربي وطريقي.

حرف الباء... بك أنت فقط أحيا وبدونك أموت، بك أنت فقط أرى الوجوه جميلة وبدونك تنهار أبجدياتي وتسقط حروفي، بك أنت فقط أنا أعيش، أستمد طاقتي منك أنت وحدك.

حرف الكاف... كنت لي دائما غداء الرّوح، طائرا يحلق عاليا كل مساء بين أهداب مخيلتي، لم يعد شيء يقنعني، شيء يفرحني سواك أنت يا حبيبتي، حتّى الهواء لم يعد يكفيني أن أستنشقه دون إحساس بهمس نسيمك.

قد وجدت فيك يومي وغدي وماضي وحاضري، أنت حياتي وأنت فقط من يعنيني، فخذي مني عهدا بالوفاء مادام البقاء يا

أجمل النساء، فما بين حب وحب أحبك أنت، رغم حبك لغيري لأن اقتلاعك من عصب القلب أمر صعب المنال، وإعدام حبك أصعب، وقتلك حلم بعيد المرام، فلا تقتليني.

# تحت ظلال الزّان

ظهر اليوم استطعت الظفر بساعة من وقت أوجين، ويا لها من ساعة، حيث اصطحبتني معها إلى غابة كثيرة الأشجار متشابكة الفروع، أفنانها متداخلة، جمّة الأوراق، يتشكل من حفيفها صوت بغيم يصرّ السامعين، تجري من تحتها أودية عذبة تبهر الناظرين.

وقد ما زلنا نسير ونتبادل أطراف الحديث، ونسبح في بحور التمنيات، حتّى انتهينا إلى هضبة صغيرة تعلوها شجرة "زان" عظيمة، تبدو أنها بسخت في تلك العلية مئات السنين، صعدنا نحوها واتخذنا أحد أركانها مجلسا لنا، ورحنا نقلّب الذكريات تقليبا، ممّا سمح لي بتوطيد معرفتي بماضيها، وبقينا على حالنا فترة نتجاذب الكلام اجتذابا، ونتشارك الخواطر ابتهاجا حتّى شعرت بتغير خالط صوت أوجين، واختنقت نبرتها بالعبرات، سألتها عمّا تكتمه عنّي في سريرتها، فأجابت قائلة: "أنا أعتبرك كأعزّ صديق لديّ، فرغم ضيق الوقت الذي أقضيه معك إلا أنني قد اطمأنّ خيالي لك واسترحت لعفويتك، ولا بدّ أمامي غير إفراغ قلبي لشخصك المتطلب المنبسط، عساني أخلص من بعض ممّا أنا فيه من مجاذبة الأهوال، وانقباضات الأحزان".

من ثم أطبقت بيديها على ركبتيها وأكملت تقول: "كانت ليلة ليلاء دجناء عاصفة، وكنت أنا ووالدتي جوزيفين دي بوهارنيه ووالدي الفيكونت ألكسندر دي بوهارنيه وأختي الصغيرة هورتنس، محيطين بطاولة الردهة نتسامر ونتبادل أطراف الحديث، فرحين بحاضرنا، مغتبطين بماضينا، مستبشرين

بمستقبل أفضل، ولا زلنا كذلك إلى أن اقتحم منزلنا مجموعة من الرجال مدججين بالأسلحة، يرتدون معاطف سوداء داكنة، أمرونا بالصعود إلى الطابق العلوي باستثناء والدي، فقامت أمي بحمل أختي الصغيرة والتحفتها بين أحضانها وصعدنا الدرج وكان الخوف يتملك كياننا، من شدة الفزع والرعب.

ثم أخذ الرجال في ضرب والدي ضربا يدك القلوب، ويرجّ المشاعر، وكان هو يصرخ بأعلى صوته ويقول: "غادري المكان يا جوزيفين، غادري المكان". وكنت أراقب كل شيء من خلال شق في أعلى الدرج، لكنّي كنت كجسد بلا روح وانتابني شعور غريب وكأنّ أطرافي قد شلّت عن آخرها شللا تاما، فجثمت في مكاني من دون حراك أنظر وأراقب والدي وأبكي على حاله إلى أن أغمي عليه فحملوه وخرجوا به من المنزل ولم أره منذ ذلك اليوم، فلقد قام بإعدامه ذلك اللّعين كبير مجلس الخمسة المسيطرين على السلطة جان نيكولا بارّا، ووجدنا أنفسنا تحت رحمته، ولم تنتهي وقاحته عند هذا الحد بل وفي نفس اليوم الذي أعدم فيه والدي ذهب إلى والدتي بحجّة أنه يريد أن يقدّم لها العزاء، ولكنّه غازلها ثمّ أفهمها أنها إذا لم تخضع له وإذا أصرّت على أن تظلّ وفية لزوجها حتّى بعد موته، فإنه سيشفق عليها ويجعلها تلحق به هي وابنتاه، فوالدتي كما تعلم هي امرأة ناعمة جمة الود تحبّ أسرتها حبا لا مزيد عليه، كما كانت تعلم مدى حقارة بارّا ودناءة نفسه ومدى قوة نفوذه، تلك القوة التي وضعتها الدنيا الغادرة بين يديه فاضطرت إلى الاستسلام له ولرغباته وأصبحت عشيقته، وهي تحقد عليه أمر الحقد وتحتقره أشدّ الاحتقار، بقينا مقيمات

عنده في قصر "التويليري" وكان اللعين ينام في نفس غرفة الملكة ماري أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر وقد أعدمت هي وزوجها أيضا، وبقينا نعاني من ظلم بارّا وجوره حتّى دخل حياتنا ذلك الرجل العظيم نابليون بونابارت وخلصنا من بين أنياب ذلك المستبد، فتزوج بوالدتي زواجا لا تشوبه شائبة، فهو الرجل الوحيد الذي رأى عذرية والدتي من الداخل، وأحبها حبا صادقا بعد والدي، كما أنه عطف عليّ وخصني بحنانه، وكأنني ابنة له".

وفي هذه الأثناء انفجرت أوجين باكية تنوح والدها وكأن طائفة من الذكريات قد بادرت ذهنها وتملكت لبها في غير إنذار أو تصريح وكانت تردد بصوت تخنقه العبرات: "أنا لا يموت أبي، أتذكر كل شيء يا آزاد، ركنه وأشياءه، جريدته، تبغه، متكأه، كأنّ أبي بعد لم يذهب، وصحن الرماد وفنجانه، لا يزال دفؤه بين يدي كأنه لم يشرب بعد، ونظارتاه، عطره يداعب أنفي ويبكي مقلتي لحن كلامه... كم هو موجع ألم الأب....

لم تلفظ الشابة آخر كلماتها حتّى أخذتها كظمة شديدة فالتقطتها بين ذراعي، وضممتها إلى صدري، وكانت تلك أوّل مرّة يتلامس جسدانا فيها، وهنا أحسست بأنّ فؤادي قد انشطر نصف يكاد يحلّق لشدّة الفرح، أما الآخر فيوشك على التوقف من الفزع والخوف عليها، ولحسن حظي لم تطل في غشيتها تلك حتّى بدأت في الاستيقاظ، انتبهت إلى ما يدور حولها وقامت في هدوء يغلب عليه الحياء وطلبت منّي مرافقتها إلى بيتها ففعلت.... وانتهت لقياي مع خليلتي أوجين لذلك اليوم وكأننا لم نلتق قط، فمجرد رؤيتها يزيد من تعلقي بها ومفارقتها تعني من الشوق الكثير.

فآه... لو تدرين يا حبيبتي بما مررت به في صباي لأشفقتِ على حالي وذهلت عن نفسك، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى الإنسان به.

# حقيقة موريس

تمكنت اليوم من رفع قلمي بعد ألم ممض كابدته ليلة أمس وتعب مضجر، وعناء عظيم، ورغم كل هذا وذاك، أشعر بنسائم فرح تداعب صدري وتطرد نوائب الدّهر عنّي، لأنني تيقنت من حقيقة موريس بعد كل تلك المدّة، فليتك يا حبيبتي كنت معي وسمعتِ ما سمعت أذني ورأيت ما رأت عيني، فلو حصل ذلك لأصبحت ملكا لي وحدي لا موريس بيننا ولا حائلة أخرى تمنعني عنك، أو عن فتح صمّام الحب الذي امتلأ عن آخره في فؤادي لكن ولسوء الحظ كنت وحدي، ولا شاهد عندي، ولو أطلقت العنان للساني، لتأذيت يا حبيبتي، فلقد هددني ذلك المختل بقتلك.... فآه يا أوجين لو كنت معي.

في مساء البارحة، وقبيل غروب الشمس كنت أتصفح أوجه المتاجر في الشارع السابع عشر، فقرأت على باب أحد المقاهي الفخمة إعلانا لتخفيض الأسعار، بنسبة تقارب النصف استلطفت الأمر و دخلت، وليتني لم أفعل، فعندما قمت بفتح الباب قابلني القائد موريس، يجلس في ركن من الأركان مع شابة جميلة، وكان يمسك بيدها ويداعبها فيبدو للناظر أنهما زوجان أو حبيبان، ولم أكد أنتبه إليه حتّى صعقت صعقة عظيمة في مكاني وكدت أفقد صوابي، وشعرت بأن الأرض ترتجف من تحتي والسقف يكاد يهوي على رأسي، فصحبت فريقا من قلبي وأسدلت مخفي أنفي على وجهي وسارعت في مشيتي كي لا ينتبه إليّ، وجلست

في طاولة بالقرب منهما أختلس النظر تارة وأسترق السمع تارة أخرى، وكانت الطامة الكبرى.

قامت الشابة بسؤال القائد قائلة: "ألم يحن الوقت للتخلص من تلك الشابة اللّقيطة أوجين؟ فلم تزل تحول بيني وبينك يا حبيبي، حتّى أكاد لا أراك على الإطلاق، ولا أستمتع برفقتك كباقي النساء، فيخطر لي أحيانا وكأنك وقعت في غرامها ونسيت أمري... كيف لا؟ وهي الشابة الحوراء الجميلة الفارهة ابنة السيّدة جوزيفين، سيدة الممتلكات وصاحبة النفوذ، فيحزنني ذلك حزنا عظيما، وينزل بي اليأس ويدخلني الدواهي."

ولم تبلغ الشابة مبلغها من الحديث حتّى انفجر القائد ضاحكا وقال:

"فيئ يا حبيبتي إلى عقلك، أعيدي لي ما قلته. أنا أغرم بأوجين، وقام بالاقتراب منها وقال: إن سمع كلامك هذا شخص ما سيخطر له أنّك مجنونة..."

فقالت: "ما الذي تنتظره إذن؟ انظر لحالتك يا موريس، لا تنقضي دقيقة واحدة إلا وأنت برفقتها أو على مقربة منها..."

فقال: "أنا أكسب ثقتها الآن كأول خطوة، فإذا تبيّن لي جزؤها الفاتر، شددتها بكل مغار الفتل، واستوليت على ثروتها وممتلكات والدتها، وهكذا سأكون آخر شخص يشك في أمره، وحينها أبتعد عن القُحاف في أمان، فإن تبيّن لي بأن أوجين صارت كالأرض المقفرة خالية الوسط، سأتمكن وقتها من رميها خارج حياتنا.."

وهنا قامت الشابة بمقاطعته بصوت قضيض مسائلة: "وإن أبت تركك تلك النّفّاثة؟"

قال: "لا يخفاك أنت بالذات أنني رجل نّزّاء قريب من الإجرام إن اقتضى الأمر، فلن يكون بالصعب عليّ قتلها. أجل. هذه هي الحياة، على أحدنا أن يكون هكذا."

في تلك اللحظات أحسست بألم قاطع في أحشائي وكأنّ مدسّا مدسوسا يقص أوصالي من الداخل، وأمسيت كالمدلّه الذي نال من جوانبه الجوى واكتفى. كيف تثقين بنذل كل مدعسه المال لا غير، صوّاغ في كلامه متصنع في ماهيته، لا يؤتمن له عمل ولا يطمئن له في سغسغة.

فذرفت عليك بعض الدموع طوعا لما تملّكني من حزن وذهول، ورغم نعمك الظاهرة على ذلك الخائن للناظر قام بمقابلة المعروف بالسفالة والنذالة، فآه يا أوجين، ليتني متّ ولم أسمع تلك الكلمات عنك.

وأردت أن أسيطر على نفسي أكثر من ذلك ولكن لم أقدر وأخذتني غمامة سوداء، ولم أكد أدرك وعيي حتّى وجدت نفسي واقفا أمامه، فصرخت فيه صرخة كهزيم الرعد، أفزعت كل الجلوس هناك ولكنه لم يتفاجأ لرؤيتي ولم يحرك ساكنا، وظل شاخصا ببصره ينظر إليّ وابتسم ابتسامة خبيثة وقال: "الشاعر آزاد.. لن أنكرك في شيء ممّا سمعت، فلقد كشفت حقيقتي وتبيّن لك ما كان مخفيا في سريرتي".

قلت: "وما الذي يمنعني من فضحك اليوم أمام جميع الناس والزج بك في السجن أيها النذل؟".

أتدرين بماذا أجابني يا أوجين؟؟ وقع الأمر المهول الذي كنت أخشى سماعه، قال لي: "سأكون حريصا على أن تموت أوجين في نفس الدقيقة التي تفتح فيها فمك".

ولم يزد مسامعي أكثر من هذه الكلمات، من ثم أمسك بيد تلك الشابة وخرج من ذلك الباب أمام عينيّ ولم أستطع فعل أي شيء لردعه أو إيقافه. وبقيت واقفا في مكاني لا أستطيع الحراك من شدّة الصدمة، تحاملت بهذا الجسد المبري من الألم والوجع وبوجهي إلى شقتي ولم أستفق إلا قبل حين بعد مكابدتي لليلة ليلاء، أخفت لي فيها من المرض والتعب والبؤس والأسف الكثير.

فآه منك يا أوجين....آه.. لكني قطعت عهدا على نفسي رغم كل شيء سأحميك، رغم الظلم... رغم الضيم.... سأحميك.

# بحر أوجين

كل أضواء الحياة الباهرة... وكل ابتسامات الزهور اليانعة، وكل أمواج البحر الباردة، لا تستطيع أن تعبر عن حبي لك يا أوجين فأنت كبحر تزيّنه اللآلئ وكبحيرة تزيّنها مناظرها الهادئة، كلما غصت في أعماق بحرك يا حبيبتي أجد في داخله أغلى اللآلئ.

تارة أرى سر جاذبيتك في أمواجك العالية التي كثيرا ما تسحبني إلى بحرها الذي ليس له قرار، وتارة أخرى أراه مثل الموج الهادئ أحب أن ألعب معه ولكن لا أستطيع فراقه، ولن أبالغ إن وصفت خيالك بأجمل من زهرة ربيع يرويها القمر، بل هي كالربيع الطلق الذي يختال بين الزهور الجميلة، العطرة، بل وكل العطور وكل الزهور... بعبارة أوضح، أنت هي روعة عالمي، فما أجملك وما أجمل الغوص في قلبك وما أجمل حبك.

ما أحلى ابتسامتها وما أغلى حياءها. فما أحسن من حسنها..؟

صحيح أني كاتب، وقد أكتب كتابا كاملا مفصلا عن الحب ومع ذلك لم أستطع إيصال هذا الشعور إلى بر قلبك يا أوجين لكن كلمة واحدة فقط كافية لذلك منك، فآمل أن أعيش اليوم الذي أسمعها من ذلك الفم الباسم، ولو بعد عقد من الزمن ولأرى تلك الابتسامة الآسرة من ثغرك... فعندما تبتسم حبيبتي أرى الطبيعة كلها تلفها ألوان قوس قزح.

صحيح أني شاعر.... وأستطيع تصور السعادة بالشكل الذي أريد ولكن مفتاح سعادتي أنت يا أوجين، فبك أحيا ومن دونك لا حياة، افتحي أبواب قلبي ورفرفي في سماء حياتي، فأنت بالنسبة لي

كالسماء بالنسبة للأرض، أنت فوقي وتحتي ومن حولي، منك أستمد الحياة، وأنت من يكتنفني، أستنشقك في كل نفس، كيف لا؟ وأنت فضائي وبري وسّر القلب والحياة، عيناك باختصار البحر الذي يعجز أمهر سباح في العالم أن يتخطاه، لكني سأظل أنظر وأنظر إليهما وأجتهد حتى أجد معنى لهذين العينين الجميلتين، وعيناك: إني بهما لمن المغرمين.

# أحداث الغبش

(15)

"لو استطاع الإنسان أن يهجر هذه الدنيا في لحظة واحدة وهو مقتنع بأن الدنيا الأخرى هي شاطئ بحرنا الأزلي، لضحى الإنسان بالأولى طمعا في الآخرة، ولكن في الحقيقة هناك أمور هنا يصفّى حسابها".

انتحر آزاد شيروان في فجر جمعة داخل زنزانته الانفرادية بسجن باريس، بعدما نال منه الدهر ما نال وبعدما قتله الحب ولم يعد إحياءه، قرّر الهجرة لآخرته وبعثرة نوائب الدهر عن أطرافه، فأصوات الماضي لا تنفك عن محاصرته وإيذائه ولا تكون الشّطّة إلا بعد إثارة ألم النفس وإفزاع النبض.

مات الشّاب بعد مبارزته لسيوف الدّهر مبارزة غير منصفة، لا عدل فيها، لم يعش الحياة التي أرادها بل عاش الحياة التي اختارها له القدر فصبر، وبكى وسهر، ضحى وصاح ولكن أين المفرّ من كتائب الزمان...؟ أين النجد الآمن من عاصفة الحدثان.... أين الطريق إلى قلبك يا تاج السنديان...؟.

# قبل أربعة أشهر

قبل مضيّ أربعة أشهر، احتل نابليون إيطاليا وكان القائد موريس أول من علم بسفرة أوجين، فأدرك أنها فرصته للاستيلاء على كل شيء في غيابها، فمهّد لخطته وجنّد رجاله وأمن ساحته إلا أنه وبعد كل هذا المكر والجهد المضني لم يكن لينسى حبّ آزاد لأوجين وإخلاصه لها، فيمكن أن يكون العثرة التي تعرقل مشروعه وتكشف أمره، وبعث له ثلاثة من رجاله المخلصين قاموا بإلقاء القبض عليه.

إلا أن الشاب شعر بما يخفونه له من ورائهم، فسلم مذكراته لجويس كي تكون شاهدا عليه في غيابه ودليلا لأوجين بعد رقاده وبعد دخوله السجن لفّق له القائد موريس تهمة الخيانة العظمى لصفته شابا ألمانيا، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، أمضى منها أربعة أشهر أخفت له ما بين طياتها الكثير من الأوجاع والآلام من العبرات والأحزان كان آخر عهدها حبل مشنقة وسط زنزانة، أنهى به كل الشقاء وأسكت به كل الأصوات وترك الدهر من غير أطراف تتولاه وتستنزفه، طمعا في لقاء حبيبته في حياة أخرى، عاش يتيما مات منبريا للحب سجينا.

# النهاية

كان زواج نابليون من جوزيفين فألا طيبا له وطالع سعد في حياته، ولكن نابليون نسي كل ذلك حينما وجد نفسه أصبح إمبراطورا لفرنسا و حاكما على كلّ أوروبا، واستكثر أن يترك كل هذا الملك من دون وريث له يحمل اسمه، وكانت جوزيفين لم تنجب منه أبناء.

فكّر في طلاقها ليتزوج من امرأة أخرى تنجب له ولدا يرث عرش الإمبراطورية من بعده...

وما إن عقد معاهدة صلح مع النّمسا حتّى طلب من إمبراطورها يد ابنته ماري لويز وأخبره أنه سيطّلق زوجته، فكانت الصدمة بالغة القسوة على جوزيفين، فهجرته لتقيم في بيت صغير في إحدى الضواحي الفرنسية تواسي نفسها بالرسم وعزف الألحان الحزينة على البيانو وتجرّ قدرها البائس جرا حزينا لا حياة فيه..

رزق نابليون فعلا بولد من ماري لويز ومنحه لقب ملك روما

ولكن طالع السعد كان قد زايله بعد أن غدر بجوزيفين وطلّقها وناصبه قيصر روسيا لإسكندر العداء وطلب منه إجلاء الجيوش الفرنسية عن ألمانيا.

و صمّم نابليون على تأديب روسيا وغزوها فحشد جيشا ضخما ليتجه به نحو موسكو، إلا أن البرد القارس حال دون ذلك، فمات عدد كبير من الجنود الفرنسيين إذ قتلهم الإنهاك والجوع.

على إثر هذه الهزيمة تشجّعت الدول المعادية لفرنسا وجمعت جيوشا وهاجمتها واحتلّت "باريس" وتألّب الجنود الفرنسيون على نابليون ورفض قادة جيشه إطاعة أوامره...

أما زوجته ماري لويز فكان مسلكها كمسلك فئران السفينة التي تهرب إلى الصاري حينما تشتدّ العاصفة، ورجعت إلى قصر والدها في "فيينا"، ولم يره انابليون ولم ير ابنه بعد ذلك أبدا...

تمّ أسره واضطرت "فرنسا" إلى توقيع معاهدة "فوتيليو" التي نفي بمقتضاها نابليون إلى جزيرة "إلبا"، حيث لبث فيها عشرة شهور ثم فرّ وعاد إلى فرنسا، وكان حينها قد ألغي النظام الجمهوري وعين لويس الثامن عشر ملكا عليها، وما كاد يصل نابليون ويعرفه الناس حتى شملت الأفراح أرجاء الوطن وفرّ لويس الثامن عشر ليعود نابليون إمبراطورا مرة ثانية...

لبث حكمه هذه المرّة ثلاثة شهور وتسعة أيام، وحشدت له الدول الأوروبية جيشا ضخما يقارب عدده المليون جندي، لتكون معركة "واترلو" التي خسر فيها وأسر من جديد ونفاه الإنكليز هذه المرّة إلى جزيرة صخرية نائية، تبعد عن شاطئ فرنسا الغربي حوالي ألفي ميل وهي جزيرة "سانت هيلانه" وقضى فيها آخر أيامه وحيدا شقيا حتى مات في شهر "ماي1821" .

لكنه ليس آخر واحد أسر في المعركة الأخيرة، بل ألقي القبض على الكثير من القادة المشهورين في الجيش الفرنسي من بينهم القائد موريس، حيث تمّ إعدامه بتهمة الفساد وعدم الانصياع للقوانين العسكرية ليموت شرّ ميتة، فما جزاء المكر إلا المكر.

أما بالنسبة لأوجين فيقول بعض الكتاب والمؤرخين بأنها سافرت مع والدتها جوزيفين وشقيقتها الصغرى هوتنس حيث أتمت آخر أيامها في كوخ صغير وحيدة لا يسمع لها نداء.

ويقول البعض الآخر أنها اختفت بعد معركة واترلو ولم ير لها أثر على الإطلاق.

أما أنا فأريد أن أتخيلها برفقة ذلك الشيخ الهرم مولر رودوفسكي يبكيان فقيدهما ويلثمان تربته ويتذكران أثره، يطويان الأيام طيّا في كوخ أعلى مدينة "غارميش-بارتنكيرشن" جنوب ألمانيا...

حيث كان لهما مأوى وأمانا وذكرى وسلاما، يبكي فيه الشيخ فقيده ويستأنس بذكراه، من أول لقاء جمعه وإياه في تلك المقبرة إلى يوم وفاته ومثواه.

وترتل فيه الشابة تلك الرسالة المجزية التي ترك لها قبل وفاته ترتيلا يملأ الدنى ويشغل الورى، تسابيحه من حناياك آزاد شيروان.

## يا تاج "السنديان"

"آه منك يا قدر، أنت كموجة القمر، أما الحياة البغيضة فتجرح أولا ثم تقدم البلسم، حسبما يحلو لها، والعوز والقوة تذيبهما كما تفعل بالجليد، أيتها الحياة المتوحشة الجوفاء، أيتها العجلة الدوارة، لكم أنت خبيثة، وما السعادة معك إلا وهم سرعان ما يتلاشى و تحجبه الظلال.

ها أنت تقنصينني الآن حسب قواعد اللعبة، فأجرد ظهري عاريا تحت سياط قسوتك، تعاديني الحظوظ في الصحة والفضيلة، تستعبدني مصائبك وشدائدك، فأسارع دون تأخير إلى ذكراك يا أوجين، إجازة لخاطري وترويحا لروحي.

فما دام القدر ينزل المصائب على الشاب العاشق ولا يستثنيه فابكوا معي جميعا."

يا من تزينت بالفضة أطرافها وتراقصت حلق الزمرد في آذانها، عنق طويل فيه قلائد جمان وجمال يرافقه جمال، ابتسامة كالوردة تزهو وعيون تحاكي عيون الغزلان.. يا جليلة الفضائل، إليك توجه الآمال يا أبهى إنسان بساحتك تحطّ الرحال، وإن كنت أعلم أن مقامك العالي يجلّ عن أن يرفع إليه مجرد رسالة جوفاء لكني أود أن أشارك معك آخر لحظاتي وآخر كلماتي وآخر دقاتي قد وافاني الليلة خيالك العزيز، والنفس نازعة إلى ما يزيل نفارها والقريحة تائقة إلى من يشحذ غرارها، فكان روضة باسمة الكمائم، فاتح النسائم، قد ردّ على النفس انبساطها وأحيا الروح فاستأنفت نشاطها، حاكاني وحاكيته، آنسني فشكرته، فما بيني وبين خيالك يا أوجين من المودّة لا تحدّه مدّة، ولا تخلق له جدة... لكن للأسف غادرني وجعلني كباسط الكفين إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه... قد قررت المغادرة أخيرا كي أسلك نجد الأحلام والغيب حيث الفرح والحنان... حيث ألقى والدتي وأرى والدي، حيث أعيش حياة أخرى من أجلك أنت... هذه بلوى العاشق بالمعشوق التي قرنت هواي بالنوى، وقلبي بالجوى.

لا أدري بعد لماذا أدرف الدمع وأنا أكتب لك هذه الكلمات، رغم أن ما أشعر به من شوق للرحيل لا يساويه سوى أسفي على فراقك... لم أكن على دراية أن ألم الفراق ينسي صاحبه خيال الموت...

وعلى أمل أن أجتمع وإياكم في الحياة الأخرى بحيث يكون حظي منك بقدر ودي لك، ومحلي من رجائك بحيث أستحق منك السلام، الوداع.

راح العشق بجدة شاب.... روحان الفرج بالحدثان
حبي لكي يا أوجين.... كشمعة وسط الدجان
تضيء ما حولها وما... أظلم كأنه ما كان
تدفيء المشاعر كأتون.... تلتهم وسطه النيران
فألف زهرة مني آزاد..... لك يا تاج السنديان